هستيريا الوطن

© دار خـــــان
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2014
رقم الإيداع 3615 / 2014
ISBN: 978- 977 - 6299 - 90 - 5
دار خان
ص.ب: 132 رمسيس-القاهرة- مصر
هاتف: 01005539472
E-mail: Darkhan.egypt@gmail.com
Dar Khan
P.O.Box 132 Ramses-Cairo-Egypt
Tel.:01005539472

سلسلة كتب عالمية
مسرحية كلاسيكية من تركيا

هستيريـــا الوطــن

ترجمة ومراجعة / نوال إيهاب
/ خالد طوبار

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أو اقتباس أي جزء من هذا العمل أو كله إلا بإذن كتابي،
ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية.

This publication of this Book has been funded by the Turkish Ministry of Culture and Tourism.

نامك كمال

هستيريا الوطن

من كلاسيكيات المسرح التركي

ولد نامك كمال -واسمه الحقيقي محمد كمال- في الحادي والعشرين من ديسمبر عام ١٨٤٠ في بلدة "تكير داغ" والتي كانت تحت تـصرف*[١] عبد اللطيف باشا، ينحدر نامك كمال من نسل السلاطين، والضباط ذوي المناصب المهمة، ورجال الدولة والشعراء. والده هو مصطفي قاسم باشا رئيس منجمي*[٢] السلطان عبد الحميد الأول، أما والدته فهي فاطمة زهرة هانم تلك المرأة التي تتمتع بقدر كبير من الثقافة.

انتقلت العائلة إلى مدينة "أفيون" عام ١٨٤٦، وذلك عندما تبوأ الجد عبد اللطيف باشا حكم مدينة "أفيون". وفي تلك الأثناء كان نامك كمال مفتي الديار المصرية والروسية. تتلمذ نامك كمال على يد الحاج عبد الواحد أفندي المنتمي إلى مدينة "بوهار"، ذلك المعلم الجهبذ والعارف بلغات عدة منها اللغة العربية والفارسية والروسية واليونانية واللاتينية، تاركاً أثراً عظيماً في نامك كمال، ذلك الذي لم يتلقى التعليم النظامي مثله مثل كثير من فناني فترة التنظيمات، إلا أن تجارب الحياة أضافت له الكثير والكثير.

١- المتصرف: بعد فترة التنظيمات كان المتصرف هو الحاكم لوحدة سكنية من الولاية العثمانية.

٢- المنجم: موظف في القصر السلطاني يقوم بعمل حسابات فلكية لتحديد التواريخ الهامة.

عُين جده عبد اللطيف باشا حاكماً على مدينة "كوتاهيا" عام ١٨٤٨، وقبل أن ينتقل إلى هذه المدينة، أُستدعى إلى مدينة "استانبول" للقيام ببعض المهام، تاركاً عائلته في مدينة "أفيون". وفي تلك الفترة، توفيت والدة نامك كمال، وبعد ذلك انتقلت العائلة إلى مدينة "استانبول" لغزل الجد من منصبه بعد فترة وجيزة، وهناك التحق نامك بمدرسة "رُشدية بيازت"، ثم انتقل إلى مدرسة "والدة". في عام ١٨٥٣ عُين جده حاكماً على مدينة "قارص"، فظل نامك كمال في هذه المدينة طيلة عام ونصف، يمارس الرياضة لاهتمامه الشديد بها، كما كان يتلقى التعليم على يد واعظ زادا سيد أفندي، وبتشجيع ذلك المعلم له كتب أولى مقالاته الشعرية.

عُزل جده الباشا عن منصبه عام ١٨٥٤، فانتقلوا مجددا إلى مدينة "استانبول" ، وفي عام ١٨٥٥ انتقلوا إلى مدينة "صوفيا" بعد أن عُين جده حاكماً عليها، وهناك تتلمذ نامك كمال على يد أساتذة مميزين؛ فتعلم الكتابة واللغتين العربية والفارسية، كما استطاع أن يكتب أشعارا عدة جوعها في ديوان وذلك بتشجيع من الشاعر أشرف باشا له.

وفي هذه المدينة، تزوج من نسيمة هانم ابنة قاضي مدينة "نيش"، فرزقه الله بثلاثة أطفال هم فريدة وعلوية وعلى أكرم [بوليار]، ذلك الكاتب والشاعر مثل أبيه.

عاد نامك كمال إلى مدينة "استانبول" عام ١٨٥٧ وهناك عُين موظفا في مكتب الترجمة الخاص بوزارة الخارجية*[٣] تلك الوظيفة التي أضافت له الكثير في حياته الثقافية، تعلم اللغة الفرنسية وتعرف بشاعر الديوان لسكوتشلى غالب أحد أشهر شعراء تلك الفترة، وبواسطته تعرف بشعراء جمعية "انجومانى شعراء" تلك

٣- مكتب ترجمة تابع إلى وزارة الخارجية، يقوم موظفوه بالإشراف على المُكاتبات الخاصة بالوزارة.

الجمعية التي تضم أغلب شعراء الديوان.

في عام ١٨٦٢ تعرف نامك كمال بشناسى أفندي، والذي أثر بشكل كبير على فكر نامك كمال، وكتاباته الشعرية، فقد حقق تطوراً ثقافياً لنامك كمال؛ فخرج عن كونه شاعر الديوان فحسب واعتنق الفكر الغربي، ثم انضم إلى كُتاب مجلة "تصويري أفكار"*[٤]، أما بالنسبة للكتابات الشعرية فقد أضفي عليها طابعا سياسيا وحداثة غربية. نشر نامك في جريدة "تصويري أفكار" مقالات تنتقد الوضع السياسي والاجتماعي القائم آنذاك، ومقالات أخري عن الثقافة العثمانية وكتابتها؛ تلك المقالات التي أعربت عن شخصية ذي طبيعة معارضة، أدت إلى نفيه فيما بعد.

في عام ١٨٦٥ انضم نامك كمال إلى جمعية "ينى عثمانليلار"*[٥]، والتي يسعى أعضاؤها إلى إقامة سلطة شرعية، إلا أن هذه الآمال قد باءت بالفشل، وعلى أثر ذلك نشر نامك مقالة في جريدة "مخبر" بعنوان قضية الشرق، ترتب عليها فرض رقابة صحفية مشددة على كتاباته، وبعلم الحكومة بكيان هذه الجمعية قامت بنفي كلٍ من رئيس تحرير الجريدة على سعافي إلى مدينة "كاستامونو"، ونامك كمال إلى مدينة " ارزروم"، وضياء باشا إلى ولاية "قبرص"، وفي عام ١٨٦٧ هرب الجميع إلى مدينة "باريس"، وذلك بمساندة كلٍ من السفارة

٤- مجلة "تصويري أفكار"

هذه الجريدة هي ثاني جريدة تركية خاصة بعد جريدة "ترجماني - أحوال"، بدأت الجريدة بالنشر في عهد إدارة شناسى عام١٨٦٢، تصدر مرتين في الأسبوع بعنوان ثانوي وهو "الجريدة العثمانية للحوادث والمعرفة"، بعد عام ١٨٦٠ تبوأ نامك كمال إدارة الجريدة، تلاه أبو ضيا توفيق بعد عام ١٨٦٥، ثم تبعهما رجائي زادا محمود أكرم في عام ١٨٦٧. أُغلقت في العام نفسه بعد صدور عددها الثمانيمائة والثلاثين.

٥- جمعية "ينى عثمانليلار"

أُسست هذه الجمعية عام ١٨٦٠، من أشهر كتابها شناسى، ونامك كمال، وزيا باشا، وعلى سعافي، تحمل هذه الجريدة صفة المعارضة، حيث تمردها على نظام حكم السلطان عبد الحميد الثاني؛ وذلك بهدف إقامة نظام حاكم شرعي.

الفرنسية ومصطفي فاضل باشا المتواجد في هذه المدينة.

قضوا في هذه المدينة شهراً كاملاً؛ حيث زيارة السلطان عبد العزيز لمهرجان السلام العالمي الذي نظمه نابليون الثالث، ولرغبة الحكومة الفرنسية بمغادرة نامك كمال وأصدقائه البلاد، فارتحلوا إلى انجلترا. أصدر نامك برفقة ضياء باشا جريدة "الحرية" - تلك الجريدة التي تعد منبع الأفكار السياسية- في مدينة "لوندرا" عام ١٨٦٨، وذلك بدعم مالي من مصطفي فاضل باشا، ومع توقف ذلك الدعم، وبدء الحرب البروسية – الفرنسية عام ١٨٧٠؛ سافر نامك إلى مدينة "جنيفرا" ثم إلى مدينة "فينا"، وهناك قرأ مقالة لوزير الأمن*[٦] بعنوان "العودة إلى الوطن"، فلبى الدعوة وعاد إلى مدينة "استانبول" عام ١٧٨١. وفي عام ١٨٧٢ أصدر جريدة "عبرت" برفقة أبي ضياء توفيق، حيث استأجرا هذه الجريدة من أرمني صاحب ملكية حق النشر لها، وبجانبها أصدر جريدة "ديوجن" التي تعد أول جريدة تركية فكاهية، وبعد فترة توقف العمل بجريدة "عبرت" لمدة أربعة أشهر ونُفي نامك إلى مدينة "جلى بلو"؛ بسبب مقالة نشرت فيها، وعقب ذلك بدأ في كتابة العمل المسرحي الشهير "الوطن"، ذلك العمل الذي يدور محوره حول نهاية عهد النفي والذي أتمه بعد عودته من المنفي؛ احتلت تلك المسرحية صدارة جريدة "عبرت"، وفي الحادي من أبريل لعام ١٨٧٣ عرضت المسرحية على مسرح "جولو آجوب"، وبعد العرض ثار المشاهدون بهتافات "يحيا كمال، وتحيا وطنيته" وبداخلهم فرح شديد، لكنهم لم يكتفوا بهذا فحسب بل ذهبوا إلى جريدة "عبرت" مطالبين مقابلة نامك كمال، لكنهم لم يتمكنوا من رؤيته، فقدموا له رسائل شكر، إلا أن الجريدة أُغلقت بشكل تام في الخامس من الشهر نفسه وذلك لاستخدام نامك الجريدة لمصلحته الخاصة. نُفي نامك كمال بحصن "ماجوسا" القاطن بمدينة "قبرص"، كما نُفي كلٌ من أبي ضياء باشا،

٦- المدير العام للأمن.

ونوري، وأحمد مدحت أفندي بجزيرة "رودوس" وظلوا عبيدا لذلك المعتقل*[٧].

كانت الفترة التي قضاها نامك كمال في حصن "ماجوسا"، فترة مثمرة في حياته المكتوبة، فقد كتب رواية "انتباه"، مسرحيات عدة منها "عاكف بى"، و"جول نيهال"، و"زوالى تشوجوك- الطفل البائس"، "كرابيلا"؛ كما كتب بعض الأعمال التاريخية والنقدية وبعض السير الذاتية.

وفي الثلاثين من مارس عام ١٨٧٦، تنحى السلطان عبد العزيز عن منصبه واعتلى العرش بدلا منه السلطان مراد الخامس، وفي تلك الأثناء عاد نامك كمال إلى مدينة "استانبول" بعد أن مكث في معتقل "قبرص" ثمانية وعشرين شهراً، ونتيجة لاختلال القوى العقلية للسلطان مراد الخامس خلفه أخوه السلطان عبد الحميد الثاني مُعلناً قانونا يُقيم المشروطية، كما قام بقمع قوى المعارضة التي ظهرت ضده؛ حيث أغلق البرلمان بحجة بدء الحرب العثمانية- الروسية فيما بين عامي ١٨٧٧- ١٨٧٨ وقام بتعطيل القانون الأساسي وأرسل نامك كمال إلى منفي بمدينة "ميدلى" ووضعه تحت الإقامة الجبرية*[٨]. وفي عام ١٨٨٤ صار نامك كمال حاكما على جزيرة "رودوس"، وهناك بدأ يكتب التاريخ العثماني، وشرع في افتتاح العديد من المدارس، وبعد مرور ثلاث سنوات، عُين حاكما على مدينة "صاكز"، وبعد فترة أصيب بمرض الالتهاب الرئوي الذي توفي على إثره في الثاني من ديسمبر عام

٧- عبيد الحصن، هم من يتمتعوا بالحرية الكاملة داخل الحصن ويُحرم عليهم الاستمتاع بها خارجه.

٨- الإقامة الجبرية : هي جزاء بالنفي حيث التمتع بالحرية الكاملة شريطة البقاء في المدينة وعدم الخروج منها، كما يضطر الشخص المحكوم عليه بهذا الجزاء إلى الحضور يومياً إلى مركز الشرطة والتوقيع بذلك.

١٨٨٨ ودُفن في ضريح مسجد[٩] ما وبعد فترة أُحضر جثمانه إلى مدينة "جالى بولو" بأمر من السلطان ووضع الجثمان في تابوت صممه توفيق فكرت، استقر التابوت بجانب ضريح الفاتح الرومي سليمان باشا الواقع في مدينة "بوليار".[١٠]

فنه:

اشتهر نامك كمال في الكتابات التركية بـ(شاعر الوطن)، ورائد الحركة الكتابية لفترة التنظيمات برفقة كلٍ من شناسى وضياء باشا؛ حيث قدم أعمالاً في مختلف الأجناس الأدبية؛ فأنتج ثماراً في الرواية، والنقد، والبحث، والتاريخ، والسير الذاتية، والمناظرات.

ومن العوامل المهمة التي ساهمت في ازدهار الحياة الفنية لنامك كمال، درايته باللغة الفرنسية، ومعرفته بشناسى، وتلقيه التعليم الأوروبي، فهو أحد ممثلي جيل الشباب الذي واكب مزايا وعيوب مبادئ أدب التنظيمات، والذي تفتحت مداركه على الأفكار الحديثة وبخاصة الفكر الأوروبى، والذي تيقن بأن تحرير الدولة العثمانية سيتحقق بأسس سياسية وثقافية تسير في إطار الفكر الغربي.

شَكّل نامك كمال -الذي كان على دراية مسبقة بالثقافة الشرقية وأدب الديوان، وكيفية الكتابة في هذا المجال- مفهوم الفن والفكر لديه وربطه بالسياسة، أوبتعبير آخر أنه تمكن من
نشر الرؤى السياسية بأسلوب فني، وذلك بعد معرفته بشناسى، والتعمق في مجال الترجمة، والخوض في السياسة والاهتمام بالثقافة الغربية، فيُرى في أعمال نامك ومن تلاه التلاحم القوي بين الثقافتين

٩- ضريح المسجد: هو ضريح بجانب المسجد محاط بحائطه.

١٠- تُستقى السيرة الذاتية لنامك كمال حيث حياته وفنه وأعماله من :-

•Hikmet Dizdar Oğlu ، Varlik yay ،1965.

•Abdullah Uçman ، ölümünün 100. yılında Namık Kemal kitabı içinde، Marmara üniversite yayını ،1988.

الغربية والشرقية؛ وذلك لنشأته على الثقافة الشرقية الدينية منذ صباه، فساهمت تلك النشأة في تحديد الطبيعة الخاصة لأعمالهم رغم كتاباتهم في كافة المجالات.

إن أبرز ما قدمه نامك كمال في مجال الشعر، هو تناوله موضوعات جديدة تختلف عن موضوعات شعر الديوان التي يصفها بـ(صرة الأجزاء)، فكان سابقوه يتناولون موضوعات الحب والعشق الآلهي بلغة ضمنية مجازية تقليدية باعدين عن سرد الاضطرابات الاجتماعية والحروب والكوارث، فجاء نامك ومن معه (شناسى وضياء باشا) معارضين ذلك الفكر، جاعلين الشعر حقلا سياسيا يحمل معاني جديدة من خلال كلمات مثل "الوطن"، و"القومية"، و"الحرية"؛ حيث استخدامها بمفاهيم تختلف عن السابقين؛ فالشخصية النموذجية في الشعر هي إنسان سياسي يحمل على عاتقه مسئولية عصر، وبإمكانه وضع أسس قانون المشروطية وذلك بدلا من الشخصية العاشقة التي احتلت صدارة الشعر قديماً، ومن أجل تحقيق ذلك ابتعدوا جزئياً عن مفهوم تجديد الفكر بالتلاعب بالألفاظ داخل كل بيت، بل اتجهوا نحو وحدة المعنى في الشعر.

ومع هذا، ظل شعراء التنظيمات الثلاث (نامك كمال وشناسى وضياء باشا) على نهج وزن العروض ووحدة النظم وأشكال وأنواع الشعر القديم مع إحداث بعض التجديدات الطفيفة، ويتبين ذلك في "غزليات نامك كمال"، و"قصيدة الحرية لنامك"، و"القصائد التي كتبها شناسى في رشيد باشا"، و"تركيبى بند لضياء باشا". ورغم تبسيط لغة شعر الديوان – تمثل عائقا بالنسبة لهم في نشر الأفكار السياسية- ، والسعي نحو السرد بلا مجاز، إلا أنهم لم يتمكنوا من إقصاء الكنايات القديمة.

وبإقحام الشعر داخل هذا الإطار، انتفي عنه الحس كسمة وأصبحت الشخصية النموذج داخل الشعر إنسانا يهب حياته للوطن ولا يمتنع عن تقديم روحه فداءً له، وذلك بدلا من شخصية العاشق التي شغلت حيزاً في الشعر قديماً، حيث اتجهوا نحو التهذيب وكتابة المقالات بلغة موزونة مقفاه وبذلك أصبح الشعر مرآة عاكسة للأفكار السياسية في ظل الفترات العصيبة التي يمر بها المجتمع، وذلك فيما بين سنوات ١٩٢٣-١٩٦٠.

ومما لا شك فيه أنه ليس بوسعنا أن نميز شعر نامك من طفرة التجديد هذه؛ لأن شعره، وبخاصة أشعاره مع شناسى، كانت ناجحة ومميزة مقارنة بالأشعار في فترة التنظيمات.

يُعرِّف نامك كمال الرواية بأنها مرآة عاكسة لحادثة ما بكافة تفاصيلها من حيث الأخلاق والمشاعر وكافة الاحتمالات، ويمكن قبول روايتي "انتباه سرجوزشتى – على بى"*[١١] ورواية "جذمى" لنامك كمال ضمن أبرز الروايات الأدبية الغير تقليدية في فترة التنظيمات على عكس روايتي "تاشوكو طلعت" و"فتنت" لشمس الدين سامي، والروايات الشعبية لأحمد مدحت أفندي.

يسرد نامك داخل رواية "انتباه" قصة على بى، ذلك الذي انخدع بإمرأة سيئة جعلته يحيد عن الطريق المستقيم، ومن ثم بدأت المصائب تهطل عليه كالمطر، كما يروي أيضاً مغامرة "مهبى كر" والتي مهدت طريق اليأس لكافة المحبين بسبب عشقهم؛ فهدف الكاتب تقديم عظة للقارئ ولفت انتباهه إلى توقع حلول المصائب بمجرد البحث عن السعادة خارج نطاق

١١- الاسم الأصلي لهذه الرواية "سون بيشمان لك"، إلا أنها لم تنشر بهذا الاسم لعدم تصريح الرقابة له بذلك.

العائلة، ومن أجل تحقيق هذا الغرض الاجتماعي، وحد بين الرواية التركية القديمة والروايات الرومانسية الفرنسية من حيث الموضوع وأسلوب الكتابة مستخدمين لغة مبالغا فيها، تاركين مساحة للعرضيات وإنكار الذات والتصرفات المصاحبة للانفعال.

تعد رواية "جذمى" أولى الروايات التاريخية في الأدب التركي حيث كتبها نامك كمال مسلطاً الضوء على عادات الرومانسيين مقتبساً موضوعها من أحداث الحرب العثمانية الروسية والتي دارت في عهد السلطان مراد الثالث في القرن السادس عشر، هذه الرواية عبارة عن مجلدين يُروى في المجلد الأول قصص حب شهريار وعدلي جراي، تلك النماذج التي وهبت ذاتها للوطن والدولة العثمانية في ظل فترات الحرب، وهذا ما يتناسب مع رؤيته السياسية والمفهوم الحديث للرومانسية، بينما يُعتقد أن المجلد الثاني يسرد قصة حياة جذمى، إلا أن هذا المجلد لم يكتب بعد؛ فمرجع هذه الرواية هو كتاب التاريخ البتشوى؛ حيث ارتبط نامك بما فيه من معلومات تدور في السياق العام للأحداث؛ فعدلي جراى هو شخصية تاريخية واقعية، بينما تعد جذمى شخصية اعتبارية من وحي الكاتب؛ فالهدف من هذه الرواية هو الاتحاد تحت راية الإسلام، تلك الفكرة التي تناولها في العديد من الأشعار والمسرحيات؛ فجذمى أول رواية في الأدب التركي تأتي في صورة الخطاب.

قدم نامك كمال أولى النماذج النقدية في الأدب التركي ومنها: جلال الدين هرزم شاه، وانتباه، وبهار دانش، ورسالة إلى عرفان باشا، وتهريب خرابت تلك الأعمال التي كانت بمثابة حقلا للانتقادات الخاصة بالجوانب الأدبية التي لا تتماشى مع الفترة الحديثة التي يمر بها الأدب، إلا أن نقده لم يقتصر على الجوانب الأدبية فحسب،

فـ "تهريبى خرابت" ماهو إلا عمل نقدي لمختارات أدب الديوان الخاصة بضياء باشا، فكان هذا سببا لوجود تحفظ بين كلٍ من ضياء باشا ونامك كمال. كانت كافة أعماله النقدية دليلا واضحا على طبيعته الحماسية.

تطرق نامك في أعماله التاريخية وكتاباته للسير الذاتية حول موضوعات مثل الاتحاد تحت راية الإسلام، وبسالة العثمانيين، واستقلال الوطن وتناولها الموضوع بنفس اللغة الحماسية، فموضوعاته سواء أكانت في الشعر، أم في الرواية، أم في المسرح؛ جميعها موضوعات تهذيبية.

المسرح:

يُعرف نامك المسرح قائلاً: "إذا كان الأدب يمثل لسان أمة، فالمسرح صوت الأدب."، كما يصفه بأنه أنفع أنـواع اللذات، بالإضافة إلى أن قراءة مسرحية أفيد من قراءة رواية جديدة حتى لو لم تضف المسرحية شيئاً بعد مشاهدتها ؛ لأن المشاعر في المسرح تُصور بعمق أكثر، كتب نامك ستة مسرحيات اجتماعية، عُرض منها مسرحية "وطن سليسترا" وهو على قيد الحياة، بينما نشرت مسرحية "كارا بيلا" بعد وفاته.

قُسمت مسرحيات نامك كمال إلى مجموعتين؛ أولى هذه المسرحيات هي المسرحيات التاريخية التي تتضمن معاني مثل حب الوطن والتفاني في سبيله والتضحية من أجله ؛ ففي مسرحية "وطن سليسترا" يُجسد نامك الدفاع المستميت عن قلعة "سليسترا" ضد الاحتلال الجاثم من قبل القوات الروسية، بينما نجده في مسرحية جلال الدين هرزم شاه" ينتقد الحكام المتسلطين متأثراً بمسرحية "كروم ويل" للكاتب المسرحي فيكتور هوجو والتي دارت أحداثها

في الهند، وكُتبت هذه المسرحية بغرض القراءة؛ لتركيبتها المعقدة وطول أحداثها، وتعرض أيضاً مسرحية "جول نيهال" بلغة حماسية دالة على حب الوطن، تلك المسرحية المستوحاه من بعض أعمال شكسبير التي تتناسب مع لغة وأسلوب المسرح عند نامك كمال. ثانيهما، مسرحيات اجتماعية محورها "العواقب الوخيمة المترتبة على الزواج دون تفكير متعمق" ذلك الموضوع الذي تم تناوله بكثرة على مسرح التنظيمات؛ ومن أمثالها مسرحية "عاكف بى" تلك المسرحية التي المؤثرة بلغتها البسيطة، كما تدخل مسرحية "الطفل البائس- زوالى تشوجوك" ضمن هذا النوع؛ فموضوعها هو الجمع بين العشاق على فراش الموت.

يبدو في مسرحيات نامك كمال تأثره الشديد بالرومانسية، وخاصةً الرومانسية الفرنسية، كما يتجلى ذلك واضحاً في رواياته.

(أعماله)

الشعر:

لم يُنشر لنامك كمال كتاب شعري وهو على قيد الحياة، فقد نُشرت جل أشعاره على فترات مختلفة عقب وفاته، ومن الممكن العثور على أشعاره كافة من كتاب "شاعرية نامك وأعماله" إعداد: أوندر جوتشجون، إصدار وزارة الثقافة الأتاتوركية - انكرا - ١٩٩٩.

الرواية:

أهم أعماله الروائية "انتباه أو سرجوزشتى- على بى" (١٨٧٠)، ورواية "جذمى" التي تم تأليفها فيما بين عامي (١٨٨٠- ١٨٨٢).

المسرح:

"وطن يهود سليسترا" (١٨٧٣)، و"الطفل البائس"(١٨٧٣)، و"عاكف بى" (١٨٧٤) ،و"جول نيهال" [الاسم الأصلي لها سون بيشمان لك، ١٨٧٥]، و"جلال الدين هرزم شاه" (١٨٧٥)، "كارابيلا"(١٩١٠).

السير الذاتية:

"أوراق مبعثرة" (١٨٧٢)، و"السيرة الذاتية لنفروز بى"(١٨٧٥).

أعماله التاريخية:

"عصر الاحتلال" (١٨٦٧)، و"بريق النصر" (١٨٧٢)، و"حصار سليسترا" (١٨٧٣)، و"قلعة كانيجا" (١٨٧٤)، و"التاريخ العثماني" [هو عبارة عن أربعة عشر مجلدا، لم يصل إلينا منها سوى أربعة مجلدات (١٩٠٨- ١٩٠٩)].

أعماله النقدية:

"تهريبى خرابت" (١٨٧٤)، و"تعقيبى خرابت" (١٨٧٥)، و"انتقاد مى بريسونس" (١٨٨٥)، و"رسالة إلى عرفان باشا" (١٨٨٧)، ومسرحية "جلال الدين هرزم شاه" (١٨٨٨)، و"مدافعة رنان" (١٩٠٨).

أعمال أخري:

"بهار دانش" (١٨٧٤)، ومختارات "تصويري أفكار" [مختارات من مقالات نُشرت في جريدة تصويري أفكار] (١٨٨٦)، و"رؤية" (١٨٩٨) ومن أجل الإلمام بكافة كتاباته المتعلقة باللغة والأدب انظر: كتابات ورؤى نامك كمال الخاصة باللغة التركية وآدابها\ تأليف: كاظم ياتش \ إصدار كلية الآداب – جامعة استانبول\ استانبول ١٩٨٩.

مقدمة العمل:

تعد مسرحية "زواج شاعر" لشناسى ،كتبت عام ١٨٥٠، وعرضت ١٨٦٠، هي أولى مسرحيات الأدب التركي، تلك المسرحية الهزلية التي تدور حول الارتباط عن طريق الخَطّبة دون أن يرى الأزواج بعضهما البعض مسبقاً و طبقاً لما قاله الكاتب ماتين آند فقد قال:"... أن الوقوف على خشبة المسرح، له قواعد لا يستهان بها."، فمسرحية "زواج شاعر" تقترب من ثقافة المسرح الغربي من حيث الأسلوب والتصور وكيفية تناول الأشخاص ، كما يُرى فيها أثر نماذج الفن التقليدية مثل مسرحية "الأراجـوز" و"مـسرح الوسط"، وبالحديث عن لغتها، فهي تتسم بالبساطة حيث الاقتراب من لغة الحديث العادي؛ لذلك تعد هذه المسرحية خطوة إيجابية في الفن المسرحي.

من قبل تلك المسرحية لم يكن معروفا في البلاط العثماني وما حوله ماهية المسرح بالمفهوم الغربي؛ فيخبرنا الكاتب ماتين آند أن بعض ما ترجم عن الكاتب الفرنسي موليير عرض كعمل مسرحي

في بلاط قصري "دولما باهتشا" و"تشراغان"، يحرر الكاتب ماتين آند بعض الأعمال التركية مثل "منصب نصر الدين هوجا"، "وقائع عجيبة"، و"حوادث غريبة"، و"الشيخ حاجى بكتاشى"، و"حكاية إبراهيم باشا"، و"إبراهيم جولشانى"، و"زورلا حكيم" مشيراً إلى كونها بدايات لبزوغ أعمال مسرحية؛ فقد كانت عبارة عن محادثات متقابلة تعرض بشكل مسرحي.*[١٢]

قبل "وطن يهود سليسترا"، كان هناك مسرحيات عدة مثل: "زور نكاح" (١٨٦٩)، و"زوراكى طبيب" (١٨٦٩) لأحمد وفيق باشا والتي اقتبسها من الكاتب الفرنسي موليير، ومسرحية "أيوه" لأحمد مدحت أفندي.

وطن يهود سليسترا

سليسترا، مدينة تقع في منطقة "دبروجا" القاطنة في "بولجاريستان" على الحدود الرومانية عند خليج نهر "تونا". فُتحت المدينة لأول مرة عام ١٣٨٨ على يد الأتراك، إلا أنها تعرضت للاحتلال على فترات عدة؛ في حرب "القرم" التي دارت ما بين سنوات (١٨٥٣-١٨٥٦) أُحتلت المدينة من قبل جيش روسي، لكن يأتي موسى خلوصي باشا ويدافع عن المدينة ببسالة منقطعة النظير طيلة أربعين يوماً، تلك البسالة التي حُفرت في التاريخ التركي تحت عنوان "الدفاع عن سليسترا"، وبناء على هذا الدفاع المستميت، لم تتمكن القوات الروسية من السيطرة على القلعة حتى بعد استشهاد موسى خلوصي باشا؛ فاضطروا إلى رفع الحصار بعد تكبُد الكثير من الخسائر الفادحة.

يصنف نامك كمال بشكل عام الموضوعات التي تتضمنها أعماله المسرحية

١٢- Matin And ،Şair Evlenmesi'nden önceki ilk Türkçe oyunlar ،İnkılap ve Aka،İstanbul،1983،S.6.

المرجع نفسه

إلى موضوعات خيالية كما هو الحال في مسرحية "جول نيهال"، و"عاكف بى"، و"الطفل البائس"، وإما أن تكون تاريخية كما في "سليسترا"، و"جلال الدين هرزم شاه"؛ ففي مسرحية "وطن يهود سليسترا" نرى نامك يستمد موضوعها من واقعة تاريخية ويتناولها بشكل حر لا قيود عليه. كانت المسرحية في البداية بعنوان "الوطن"، إلا أن الرقابة لم تأذن بعرضها على هذا المسمى؛ لذلك عُرضت ونشرت باسم "سليسترا" وفيما بعد أُشتهرت تحت مسمى " وطن يهود سليسترا".

يُروى في المسرحية حال المتطوعين الذين هموا لإنقاذ قلعة "سليسترا" من الاحتلال الجاثم، كما يسرد لنا حكاية عشق إسلام بى ومحبوبته زكية هانم، تلك التي همت بنفسها إلى القلعة عقب ذهاب إسلام بى إلى هناك، متنكرة في زي الرجال وهناك سُجلت كمتطوع، وبعد العديد من المعارك الباسلة تقهقر الأعداء، وتوهم والدها الميرالاى صدقى بى وفاتها، و بذلك نالت القلعة استقلالها وتلاقى الأحبة على فراش الموت.

وضع نامك كمال الأحداث داخل إطار معين يعكس من خلاله فكرة أن "الفرد عبداً للوطن فحسب"، ارغم ذلك، لم يكن العمل نقطة انطلاق في عالم المسرح، إلا أنها تعتبر أولى المسرحيات التركية التي تتماشى مع الثقافة الغربية من حيث الشكل والتبويب (فصول ومشاهد) .

تنم مسرحية "وطن يهود سليسترا" عن تأثير كلاً من فيكتور هوجو وشكسبير على أعمال نامك كمال وتطور الأحداث في سياق تيار الرومانسية، و إحياء الشخصيات، وكيفية نظم المسرح، واستخدام لغة خاصة به

أبطال المسرحية، ما هم إلا نماذج محبة لوطنها ابتدعها نامك كمال وجعلها مثالا لهذه الفترة؛ فهم نماذج مقولبة دائماً ما تظهر في الأعمال الغربية الخاصة بالمسرح الرومانسي أكثر من كونها شخصيات اعتبارية، يمكن تصنيف الشخصيات طبقاً لحالتها الاجتماعية كالآتي؛ إسلام بى الفتى الشجاع الذي لم يتوانَ عن خدمة الوطن،

وزكية هانم تلك الفتاة الشابة العاشقة التي جازفت بحياتها من أجل العشق، و وصدقي بى القائد الباسل المهيب، والشاويش عبد الله، ذلك العسكري المخلص الذي دائماً ما يقول "ألم تقم الساعة!".

اللغة:

تتسم المسرحية ببساطة لغتها التي تتميز بها عن غيرها من أعمال نامك، وهذا ما يشير إلى أن الكاتب – الذي استخدم المسرح لعكس أفكاره السياسية- على دراية باللغة التي تتناسب مع المسرح . بعد عرض المسرحية وانتشارها، تُرجمت إلى اللغة الألمانية ونشرت بها، كما عُرضت في كثير من دول خارج الوطن .

ملحوظة:

يُرى في كتب الكلاسيكيات القديمة موازاة بين مقصد الكاتب ولغة العصر؛ فقد كانت محادثاته تنقل كما هي مع إيضاح الألفاظ الغريبة في الهامش، بينما اختلف الأمر عند تناول مسرحي " وطن يهود سليسترا"؛ فلم يُلجأ إلى شرح كثير من الكلمات وذلك لبساطة لغتها، بالإضافة لذلك، لم يُتطرق لتغير بنية الجملة، إذ يتواجد بداخلها العديد من الكلمات التي تسهم في إيضاح المعنى.

مقدمة الكاتب

أيها البواسل*[١٣]، يامن نذرتوا أرواحكم فداءً للوطن.

أقدم إليكم عملاً متواضعاً يزداد سطوعه بإشراق مجدكم عليه، وبذلك ينال عملي الذي لا قيمة له -من وجهة نظري- شرفاً لإعلاء بسالتكم، مثله مثل عسكر الدولة الذين نالوا شرف الجهاد والبسالة لمشاركاتهم في المعارك.

فليحيا العسكر! وليحيا الوطن!

١٣- البواسل: هم المجاهدين الذين يحاربون لنصرة الدين.

(كمال)

(وطن يهود سليسترا)

(هستيريا الوطن)

(مسرحية ذات أربعة فصول)

أبطالها :

زكية هانم

حنيفة هانم

إسلام بى، ضابط متطوع*[١٤]

أحمد صدقي بى، ميرالاى*[١٥]

رستم بى، عقيد*[١٦]

عبد الله، شويش

عقيد

مقدم

الضابط الأول

الضابط الثاني

الضابط الثالث

المجندين*[١٧]

المتطوعين

١٤- ضابط

١٥- عقيد

١٦- عميد

١٧- عساكر بلا رتبة

الفصل الأول

يُفتح الستار على حجرة يطل جانبها على الشارع، تبدو زكية هانم في زي مهندم ألباني متكئة على فراش، في يدها كتاب وأمامها شموع، بينما يظهر إسلام بى متجولاً في الشارع .

المشهد الأول*[١٨]

زكية هانم (تضع الكتاب الذي بيدها على الوسادة)وتقول بآسى:

- آه يا أماه*[١٩]! لما منحتِ قلبي كل هذا الحنان؟! لما أثريتٍ فكري بهذا القدر؟! حتى أنك عندما تريني هكذا، يساورك الندم على أنك من علمني كيفية القراءة، كيف لقلبي أن يتحمل كل هذه المشاعر؟ كيف لعقلي أن يستوعب جل هذه الأفكار؟ أنصتِ إلى قلبي كم ينبض ! حتى كاد أن ينُتزع من صدري... فكم شُل فكري حتى كاد عقلي أن يُجن فأبقى هائمة فيما حولي!...

(وضعت يديها على وجهها مخاطبة والدتها):

- دائماً ما يخطر والدي على بالي، شاغراً قلبي الذي ترعرع على الحب من عنايتك به؛ فوالدي أهداك منهاج الحياة، فأتبعته دون مغالاة، ثم منحتني إياه إلا أني لم أنتهج ذلك الطريق، حتى أن البكاء لوفاته لم يجول بخاطري. آه! أراه دائماً نصب عيني، دائماً في فكري، !حتى أني تخيلت رؤياه، ليتني أراه حقاً فتسيل عيني دمعاً ... وحينها أريد أن أستجمع كل قواي وأصوب نظري نحوه، آه يا الهي! فقدت

١٨- المشهد الأول: هو أحد المشاهد الست التابعة للفصل، والذي يتغير بتغير الشخصيات على خشبة المسرح.

١٩- في ظل الفترة التي كُتبت فيها المسرحية كانت تستخدم كلمة الجدة بمعنى "أم".

كل قواي ولم أعد أملك نصاب عيني؛ لأن كل ما رأيته، أو سمعته، أو قرأته، أو جال في خاطري لا يحمل له ذكرى؛ فذكرياتي مع الأماكن أكثر من الأشخاص.

وبعد لحظة من التفكير قالت:

- كم غريبة أمور الحياة تلك! فقبل أيامٍ كان إذا بكى شخص بجانبي أتوهم أن دموعه تسيل سروراً؛ فأذني تسمع الضحك نواحا! فعندما يتلألأ البرق في السحاب، يبدو لي كأنه شخص يبتسم، وإذا رأيت الورود متفتحة أتخيلها شخصاً يبكي! فقبل أيام كان ثغري يبتسم، لتبسم كل ما حولي، لكن اليوم يعيش قلبي في آسى؛ لأن كل ما حوله ينزف دمعاً! يشرق الصباح، ولم تذق عيني النوم مجدداً ...

(تُطفيء نيران الشمع):

- شمع مسكين! تُرى، هل سأذهب أنا أيضاً وأتخلى عنكَ؟ فإن استطعت أن أنام مدة خمس دقائق، فإني سأراك في حلمي وحينها سأترامى على قدميك، وأبكي بحرقة إلى أن يسيل السم بقلبي...

يا إلهي ما هذا الخطاب؟ يُشعل القلب ناراً وكأنه مكتوب بحروف من جهنم ؛ فكلما قرأته سالت الدموع متناثرة كشظايا اللهب تحرق الفؤاد... يا ربي! يا ربي! ما الذي يحدث إذا خُلق قلب الإنسان كوجهه؟

المشهد الثاني

إسلام بي و زكية هانم.

إسلام بي (داخلا من الشباك):

-أستطيع البوح بما بقلبي. ماذا أفعل إذا كان بداخله أسرار لم يكشف لك عنها.

زكية (عندما ترى إسلام بي، تتمنى أن تجري ناحيته إلى أبعد درجة،

ولكن تستعيد توازنها مرة أخرى. وبعد قليل من الأسف والصمت، قائلة لنفسها، استمعِ إلى كلامه)

- أليس من حقي أن أطلب الموت من الله في كل يوم ؟ لو رآك أحدهم هنا ماذا سيقول عني؟

إسلام بي:

- ليس هناك احتمال أن يراني أحد، في هذه الأيام ، والليالي، حتى أنني أتدحرج في التراب كي لا يراني أحد... أشرق الصباح ولم ينهض أحد... حل الليل وحان النوم... فكل ليلة أتجول هنا وهناك، ثقِ بي؛ فلن يراني أحد.

زكية (خافية سعادتها، قائلة بجفاء)

- هل دعاك أحد ؟

إسلام بي:

-حباً في الله لا تحجبي وجهك عني ، فاليوم أرى الكون كله أمامي فهدفي منه هو رؤياكِ فهل سأراكِ مجدداً؟ الله أعلم... منذ قليل استمعت إليكِ منصتاً إلى كلماتك من تحت الشباك مثل الجاسوس.

(زكية تظهر استيائها)

- أعرف أن خطيئتك كبيرة. لو أن أحدا آخراً فعل هكذا، لسقط من نظري إلى يوم القيامة.

(يزداد استياء زكية):

-دخلتَ إلى المنزل من الشباك مثل قطاع الطريق.

(يزداد استياء زكية أكثر):

-لو دخل أحد إلى بيتي بهذه الطريقة، لاعتبرت دماءه حلالا وقتلته.

(مازال استياء زكية في ازدياد):

- ماذا أفعل، ليس بيدي.. إنني أحبك... وسأفترق عنك... سمعت اليوم منك أنك تحبينني.... اليوم سأودعكَ... ها هو قلبك كلما أراد الابتعاد عني تأتي بك قدماك إلي على الفور... أنا أيضا لو كنت أستطيع أن أتمالك نفسي لكنت فعلت... وكنت سأبقى بجانبك، وكنت سأحاول

ألا أكون مذنباً. الرحمة! الرحمة، فكيف لذلك القلب المصنوع من الحجر أن يكمن في هذا الجسد المشرق.

زكية (وبعد تردد وصراع طويل مع قلبها ، قائلة لنفسها):

-أتحمل كل هذه الآلام طيلة الوقت. إنه أمر مستحيل ... مستحيل .. ومازال مستحيلا.

(تنادى على إسلام بي)

- ما الذي تريده؟ صارعت نفسي كثيراً ... فجأة تظهر أمامي مثل الجني، وتأخذني من نفسي. لو نمت، فأنت تشغل بالي! لو استيقظت، فأنت في خيالي! لو بداخلي إنسان، فأنت في قلبي! لو بقيت وحيدة ، فتراودني أنت! دائما أنت! دائما أنت ! أتريد جسدي؟ فها أنا أسيرتك، أ تريد روحي؟ فها هي ملكك.

إسلام بي:

- منذ أن رأيتني أردتِ إبعاد عينيك عني... أهكذا رحمتك؟ أتعرفين ماذا حدث بقلبي عندما رأيتكِ؟ فيما بين إغماض العين وفتحها أشعر بأنني أفقد عمري كله... أشكر الله ألف مرة، فأنتِ مثلي، أحببتيني ولم أكن بين يديكِ. قلبك يتغلب عليك. رأيتني مرة. ورأيتك مرة. وها هي قلوبنا أصبحت توأما، وها هو الله منحك لي ومنحني لك... ها أنت الروح، وها أنا الجسد! أنت العشق، وأنا القلب! أنت الجمال، وأنا العشق! أنت شمس، تدمع عيناي كلما نظرت إليها، إنني ظلك، أزحف تحت قدميك! لو افترقنا عن بعضنا هنا، سنجتمع هناك... لو أفترقنا اليوم سنجتمع غدا... نبدو منفصلين، لكن سنتلاقى مرة أخرى... نُعتبر منفصلين... لكن في كل وقت نحن معاً، تعال، تعال بجانبي... بالله عليكِ، سواء أفترقنا أم لم نفترق; فلا تتخذي حبيباً سواي أكان في الدنيا، أم في الآخرة .

زكية (غير متمالكه نفسها):

- والله...

(استجمعت قواها، وبصوت خجول) قالت:

- كنت أحدث نفسي... أنت رأيتني... أنا... أنا لا شيء ... لم أقل شيئاً. أم أنني قلت؟ ماذا كنت سأقول؟

(تفقد هدوءها مرة أخري، بأسلوب مستبد) تقول:

- إنك تحبني، فلمَ سنفترق؟

إسلام بي:

-سأذهب، لان....

زكية (قاطعة كلامه بغضب شديد) :

- لقد نزعت حب أبي وأمي من قلبي؛ حتى قبر أخي أنسيتني إياه. الآن يرقد في التراب الأسود، ولا يخطر على بالي زيارة قبره. هرب النوم من عيني... ولم يبقَ لدي رغبة في أي شيء، لم يعد في قلبي شيء سواك. والآن تنزع نفسك من يدي، بل وتزف هذه البشرى إلي. أهذا يُرضي قلبك، أهذه رحمة، أهذا إنصاف؟

(تُحدث نفسها بغضب قائلة):

- وفي النهاية، ماذا سيحدث؟ إنه سيغادر هذه المدينة، سأرتحل أيضا عن هذا العالم، وأرقد تحت التراب بعد أن فقدت لذة الحياة، فهل سأخاف من آلام الروح لبضع دقائق؟!

إسلام بي (غير متمالك نفسه):

- سأذهب

زكية (تجرى خلفه وتقطع كلامه):

- اقتلني أولاً.

إسلام بي (مثل ما سمعتي)

- سأذهب

زكية (تقطع كلامه مجدداً):

- أهكذا رجولتك، سأقتل نفسي.

إسلام بي (برزانة):

- سأذهب... سأذهب... سأذهب... لو اشتغلت نيران جهنم في طريقي سأذهب. لو اتكأ عزرائيل بمخالبه على صدري سأذهب،

سأذهب حتى لو استوجب الأمر أن أدهس قبر والدي، حتى لو انتهك جسد أمي تحت قدمي سأذهب، لو علمت أنك ستموتين من أجلي سأذهب.

زكية (بغضب شديد، قائلة لنفسها):

-آه، لا يصدق! لا يصدق أني سأموت من أجله... ربما لا يصدق حتى بعد وفاتي.

(تتجه إلى إسلام بك بغضب) ستذهب... ستذهب.. لماذا ستذهب؟

إسلام بي (برزانة):

- ستذهبين إلى زيارة المقابر في ليلة مولد النبي.

زكية (بغضب):

- سأذهب... ثم؟

سلام بي:

-أرأيتي هناك رجلا ينام في مرتعي؟ أعرف أسماء اثنين وأربعين شهيدا من أجدادي، لم أسمع أن رجلا مات في فراشه هنيئاً. أفهمتي؟ لم أسمع عن رجل واحد... أُعلنت الحرب على البلاد، والأعداء على الحدود يسحقون أرضنا، وعظام شهدائنا. كيف يوجه العدو السلاح في صدر وطني، ولا يكون صدري في المقدمة، كيف يكون الوطن في خطر، وأنا أمكث في بيتي مرتاح البال؟ كيف يحدث هذا، كيف أمكث هنا والبلد في خطر؟! كيف يحدث هذا، فحب الوطن واجب مقدس، ألا يجب أن أضحي من أجله؟ أبدا لن يحدث هذا، هل أبقى وأكون أقل من أبي وأجدادي؟ الوطن الوطن أقول الوطن في خطر... هل تسمعين؟ الله خلقني، الوطن رباني. الله أطعمني، أطعمني من أجل الوطن. إنني للوطن منذ ولادتي، ترعرعت في خيره... تعريت فكساني. فأنا منه؛ جسدي من ترابه، ونفسي من هوائه... فإن لم أمت من أجله، فلماذا ولدت؟ ألست رجلاً؟ أليس لي دور؟ هل لا أحب وطني؟ آه، فكيف تنتظرين الحب من رجل لا يحب وطنه؟

زكية:

- إذا ...الوطن... عندما يصبح الوطن... أنا... ماذا أقول؟ أنا... أنا ما الذي أستطيع قوله؟ اذهب! اذهب يا سيدي! هكذا حال الدنيا! أدرك الوطن وماهيته، لكني لم أكن أعلم بافتراق قلبين عن بعضهما البعض، فقلبي تحطم وداخلي ينزف دماً. أقول هذا وكأنني آره، ولتسير الأمور كما هي، اذهب يا سيدي! فسينتهي أمري بسيل دمعة أو دمعتين، وإن أبيت ذلك سأوقف دمعي واخفيه في قلبي؛ فكل دمعة هي مرار يقطن بقلبي. ستذهب إلى خوض المعارك، أليس كذلك؟ ستذهب من أجل الوطن،أليس كذلك؟ فلتنساني ولتنس الدنيا أيضا... أنا... أنا لا أريد حتى خطابا منك، ولتأتي سالماً إن شاء الله، وحينها ستجدني هنا عبدة في انتظارك.... أوف... فكل كلمة أنطق بها تُشعل في كبدي النيران وتلتف حول رقبتي حتى أكاد أختنق.(تبكي بشدة ورأسها منحنية).

إسلام بي:

-على الأقل سأقدم لضابط آمِر تقريرا شفهيا. لو استشهدت من أجل الوطن فهذا قدري، وحينها يمكنك اختيار الشخص الذي ترغبين فيه.

زكية:

- فليأخذ الله روحي مائة ألف مرة. فأنت تجعلني أمزق قلبي بيدي أمام عينيك، فأنا أمامك المسني ستنل قلبي فماذا لو استشهدت؟ هل سيبقى لي متاع في الحياة الدنيا؟ وقتها ،ما سبب بقائي؟!... أهناك أسهل من الموت بالنسبة لمن سُئم الحياة؟ هل موتك شيء هين بالنسبة لي؟ انظر إلى وجهي مرة أخرى، فما الفرق بيني وبين الميت (قائلة لنفسها) يا ترى هل سنفترق عن بعضنا، وحتى وإن اجتمعنا على فراش الموت، فهل هذا هو إنصاف القدر؟ (في حالة هيام) تعالَ سيدي.. ألم ترد أن أعدك بشيء؟ أقسم بربي وبعدد أسماء العاشقين في الأرض في الدنيا والآخرة أن زكية ملكك فحسب، زكية أمتك...

إسلام بي:

- يا إلهي...

زكية (تقطع حديثه):

- اصمت! لا أريدك أن تقسم، فإذا كنت تفكر للحظة أنه بإمكانك أن تخبرني كذباً، فحينها سيمسني الجنون. آه ! ليتك تعلم كيف تراك عيني كيف يدركك قلبي فكلما تطلعت إليك، أحمد ربي على تلك الهبة، إنك أمامي حي ترزق. أأنت رجل... ربما لا يجول هذا بخاطرك؛ أتعلم فيمَ أفكر عند رؤياك؟ تغادر فتبقى صورتك في مخيلتي، تلك التي تثير غيرتي لبقائها من دونك، فحينها أتمنى أن تنساني هي أيضاً . إنه جنون... أليس كذلك؟

إسلام بي:

-بالله عليك دع الغيرة جانباً كي أودعك، فهل تعتقدين أن قلبي حجرا؟! (يخاطب ذاته):

-عندما تعرفينني على حق ستجدين أني أضحي بكل شيء في سبيل أداء واجبي، حتى العشق لم يراودني في سن المراهقة – سن الأربعة عشر- قدري هذا لا يحزنني، بل أسعى للابتسام دوماً رحمة بنفسي... فإن متُّ، لن أتكبد غماً على فراقك، فمن أهم ما علمني إياه الوطن، أن رؤية فتاة مثلك أعظم من مصادقتها (يتحدث بلطف) أكيد... صدقيني... العدو ليس بالزهرة التي تُلقى على الأكتاف، وأني لن أموت بسقوط الشهب أو انهيار الجبال البركانية.

زكية:

-أمنية... خيال...

إسلام بي:

- هل لا تثقين بالعدالة الإلهية؟

زكية:

-ما فائدة الثقة؟ ماذا ستجلب؟

إسلام بي:

- فكري لمرة، الوطن هو حامي الحياة والحقوق؛ فعندما يكون بحاجة للحماية فعلى أبنائه تلبية النداء والوقوف بالمرصاد في وجه كل

معتدٍ. الوطن هو أم حاضنة للجميع، يسعى دائماً للم شمل الجمع في السراء والضراء؛ فعندما تسيل دماء أحد منهم على أرضه، يأبى أن تدمع العيون عليه! الوطن، يحيا على ترابه أربعون مليون حياً، لكنه لا يملك أربعين شخصا بإمكانهم التضحية من أجله! فالوطن يحافظ على بقائه بمساندة الدول لا بتعداد السلاح، في حين أن أمماً تحيا بهذه الوسيلة! الوطن، لا يفرق بين رجل وامرأة ؛ فلا يدرك ماهية الرجل ولم يسمع بكلمة امرأة، هكذا هو، اعتبريه كبرياء، اعتبريه غرورا، اعتبريه جنونا، فليكن ما يكن! أرى أن الوطن في حاجة لي ولكِ؛ فكوني ضابطا في خدمة الوطن يا لها من أمنية تجول ببالي، يالها من رغبة يتمناها قلبي، فعندما ينادي الوطن يلبى الجميع النداء؛ حتى أنتِ ستذللين فطرتك كأم في خدمة الوطن، فستنجبين طفلاً يشبهني تماماً يكون خادماً لوطنه. أرأيتِ كيفية تحقق العدالة الإلهية وحكمتها، لكن عندما يصبح الإخلاص للوطن في بلدنا شيئا ضئيلا كطفل مولود من رحم أمه، فحينها أتمنى أن يتوفانا الله؛ فهل ستبقى عقيدة الإخلاص للوطن، ومن يناشد بها هكذا في حالة من الشتات، فليأخذنا الله . أستغفر الله العظيم[٢٠]... انشقاق رحم امرأة وتمزيق جنين لم يُكتمل تكوينه، فجميعها أفعال شبيهة بتصرفات قطاع طرق بلدة "كالاباكا"... القدر في منأى عن كل هذا الظلم... بالتأكيد لا دخل له؛ فحن سنحيا، وسُنعايش مستقبل الوطن، وسندع أطفالاً يدركون أن الموت في سبيل الوطن خير من الحياة لألف سنة. قريباً ستريني أمامك مزينا بطعنات من الحربات والرصاص...

زكية:

-خيال! خيال! فكان والدي يتحدث هكذا! كان لديه الآمال ذاتها! وكانت والدتي تحكي لي هذا كل ليلة... وفي النهاية ماذا حدث، لم نعلم حتى الآن أين مرقده!

إسلام بي:

٢٠- أتمنى المغفرة من الآله.

-ولماذا تريدين أن تدركي مرقده؟

زكية:

- أبداً، فحتى الآن لم يُرسل خطاب إلى زوجته التي عاشرته خمسة عشر عاماً،أو إلى ابنه، أو إلى ابنته

حتى يُعلمهم بأنه لا زال على قيد الحياة.

إسلام بي:

-من يعلم! ربما كُتب له العودة من الحرب سالماً غانماً، وحينها سأبلغك بخبر منه.

زكية:

-مالذي ستخبرني به من رجل ميت؟

إسلام بي:

- فلنفرض أننا نعلم أين قبره، وحينما يقترب الوقت سآتي معك نودعه سوياً، فقد كان دائم الدعاء لوطنه بقلب مخلص... بكل تأكيد تقبل الله منه ذلك الدعاء

(يحاول أن يبتسم متماسكاً نفسه):

- ما هذه اللآلئ التي تتناثر من عينك؟ تماسكِي ولا تبكين لماذا لا تتبسمين؟ فكلما فارقت الابتسامة وجهك، وقف الحزن على أعتاب عينيك الهائمة.

(يخاطب نفسه):

- ما هذا الوداع، الله لا يحكم بالعشق على أحد. السعي... فلنسعى قليلاً... أتركك

في رعاية الهدي[٢١].لا تنسي الدعاء الدائم للوطن. هكذا... هكذا... إني راحل... إني راحل... (يرددها بقوة أكثر) إني راحل... إني راحل... وليحيا الوطن!

(تفقد زكية توازنها، ويخرج إسلام بي).

٢١- الهدى: اسم إله.

المشهد الثالث

زكية (وبعد دقيقتين تنهض وتجول بنظرها في كافة جوانب الحجرة) قائلة:

- في النهاية ذهب... أكان حلما؟ آه... الأمر الوحيد الذي كان سيسعدني

أصبح نقمة علي، ربما يكون حلما. أيحسبني قوية مثله؟ أيعتقد بأن قواي لن تخور؟ آه! ما هذه النيران المشتعلة بقلبي، ما هذه الخناجر التي تُطعن في كبدي، ما هذا السم الذي يسيل من عيني! لو يعلم هذا، لتألم على فراقه الذي يجعلني بهذه الحالة، فذهابه يقتلني. يا سيدي! قد تركتني من أجل وطن، فمن أجل من سأتركك؟ فأنت وطني، أنت روحي. كان قدري أن أرى الدنيا مرتين، فليت تلك اللحظات تعود لأفتدي عمري بدلاً منه، فكان بين يدي، لكني لم أفز به! لو صرخت الآن سيسمع صوتي... للقلب يد تمتد بمخالبها إلى رقبتي وتكتم أنفاسي! لو أسرعت الآن لأدركته... لقلبي سلاسل تلتفت حول جسدي وتسيطر على قواي، وتطوّق أقدامي. الهجر... الهجر... الفراق مجدداً... الفراق مجدداً... الفراق مجدداً... آه! ربما ألتقط أنفاسي... انخلعت روحي وتسربت.

(بعد تفكير لبضع لحظات) تقول:

- لماذا أنتظر الموت؟ إن عمري يتبدد في كل نفس أخرجه حتى أصبح العيش بالنسبة لي شيء مستحيل، ليتني أموت اليوم، فما الذي يحدث؟ حتى قلبي لا اعلم أين هو، فإن وُجد، فستجده مليئا بالطعنات.

(وبعد لحظات من التفكير) تعاود الحديث قائلة:

- أما هو... سيعيش... ليته يعلم ما بداخلي، فيقتل نفسه حزناً علي...

لماذا؟ لماذا سيقتل نفسه؟ فوطنه قائم، إنه يعيش خادماً له... فإن لم يكن حبه لوطنه قد فاق حبه لي، فما رحل... بعد موتي هل سأظل في مخيلته؟ هذا أمر مستحيل، مثله مثل رغبتي في أن أرى والدتي أمام عيني، يبدو لي أنها تحبني حتى وهي في قبرها، أما أنا بالنسبة له فهل أشغل ولو جزءًا من تفكيره؟ فالتراب الأسود لا يغطي شيئاً! وماهو في العراء لا يُفقد.

(وبعد تفكير استغرق لحظات):

- من بعدي... من بعدي أخرى... لو ستحب امرأة أخرى... فالدنيا هذه إما... من يعلم؟ إنه لم يقسم... لم أجعله يفعل ذلك.

(ترتجف خوفاً كمن رأى شبحاً، ينكمش جسدها على الفراش) لا... لا... هو، لن يعشق غيري في هذه الدنيا... لن يحب أحداً، وإذا عشق سأظهر دائماً أمامه بكفني ملطخاً بالدماء.

(تبتسم بمرارة شديدة):

- أموت من أجله، ويعشق سواي! آه أود أن أقتل نفسي، كما أود أن أترك عدوي بلا عدو، فهل سيتحقق ذلك؟ يا ربي! يا ربي! إنني أعلم أن في القبر حشرات وثعابين... أرى أمام عيني أشباحا مخيفة! أمي! أمي! ... ليتك بجانب ابنتك كي ترقد بسلام على ذلك التراب الأسود! افتحي... افتحي ذراعيك... ضميني لصدرك... آه... أشعر ببرد شديد... إني خائفة... إني خائفة من خيالي، من فكري، من نفسي... فإن لم تضميني لصدرك، فافتحي قبرك، أود أن أستكن في إحدى زواياه.

المشهد الرابع
زكية في الحجرة،وإسلام بى والمتطوعين في الخارج

إسلام بي (في الشارع)

- أصدقائي، جميعنا هنا أليس كذلك؟

(تسمع زكية صوته، فتجري نحو النافذة، وتختبىء بجانبها)

أحد المتطوعين (يجول بنظره فيما حوله) ثم يقول:

- جميعنا هنا.

إسلام بي:

-إخـوتي! اجتمعتم تحت رايتي[٢٢]، وأنا سعيد بذلك، لكن هل يساوركم نفس الشعور تجاهي؟ إني ذاهب إلى المعركة وهدفي الموت، غير متقاضٍ أجراً، ومن يرغب ذلك فليصاحبني. إن سيل المطر لا يعير انتباهي، ومن يشغله الأمر فليتراجع، إني لا أبحث عن راحة، ومن يبغاها فلا يصاحبني، لا أخف من طلقات الرصاص، فمن يخف فليبقى بجوار زوجته. فإذا أمكن سأجعل من جسدي متراسا لنصر إخوتي في الوطن، سأخبئ وطني بقلبي، ولن أدع يداً تمتد إلى شبراً منه... أسمعتم؟ أفهمتم ماقلته؟فهل بإمكانكم نزع رهبة الموت من قلوبكم؟ هل بإمكانكم استيعاب تلك الاستحكامات المفروضة من أجل حماية حدود الوطن. أأنتم مستعدون لاستقبال الموت؟ هل بإمكانكم الذهاب بحثاً عنه؟ إننا سنحمي الوطن، والله سيحمينا... من لا يستطع فداء الوطن فهو يعلم ذاته جيداً. كونوا على ثقة بذاتكم، والآن استحضروا أمام أعينكم المكان الذي سنذهب إليه مثلي... فلا شك في أنكم جميعاً مثلي. أصدقائي! سنتجه الآن إلى نهر "تونا"... فـ"تونا" بالنسبة لنا شريان حياة، فلولا وجوده لانتهى الوطن، وإن انتهى الوطن، لانتهت البشرية... ربما هناك من سيعيش... أجل! ربما يحيا.

(وبغضب شديد) يقول:

- لا... لا... هناك من سيحيا، ولكنه ليس بإنسان؛ فالإنسان لا يستطيع العيش وهو يرى وطنه يُدهس تحت الأقدام، الإنسان الحق لن يعيش وهو يرى من أطعمه ورباه خاضعا مذلولا؛ فالذي يحيا من أطعمه ورباه على هذا الحال، فهو أقل مقاما من الكلب. الإنسان على أيه حال ليس كلباً، ولا يمكن أن يكون أقل من أي شيء قط؛

٢٢- اجتمع اسلام بى بالمتطوعين تحت طية العلم.

فهناك الله الأعظم من الإنسان يوصي بمحبة الوطن، فوطننا يعني "تونا"؛ فإذا ضاع "تونا" فلا وطن لنا، فإذا بحثتم داخله لوجدتم عظام آبائكم وأخواتكم به... حتى التراب الذي يعكر صفو النهر ما هو إلا أجساد ماتت في سبيله. فمنذ أن ذيع صيت الرجل العثماني، بدأت تمتد الأيادي المحتلة إلى تونا، أُحتل أكثر من مرة، أُحتل مراراً وتكراراً، لكنه لم يخضع لأحد، ولن يخضع بصمود العثمانيين، فلو تعلم من هم العثمانيون، وماهي الدولة العثمانية، فستتيقن من أن الاحتلال في وجودهم أمر مستحيل. أأنتم مستعدون للموت في سبيل الوطن؟ ألستم خائفين من الموت على ضفاف النهر؟ فحماية الوطن والموت في سبيله لن يدع للأعداء فرصة لاحتلال نهر "تونا"، فإن مر أحد من هنا سيجدنا إما مصابين أو جثثا هامدة، إنني أتمنى الموت في سبيل الدفاع عنه، فمن نزع تلك الرهبة من داخله؟ أتقسموا بالله أنكم لن تتقهقروا؟

المتطوعين:

- نقسم بالله. هيا! هيا! فلنرحل!

إسلام بي:

-فمن يحبني، لن يبتعد عني...

المشهد الخامس
زكية بمفردها

زكية (تضحك بمرارة من خلف النافذة):

- من يحب السيد، لن يبتعد عنه! انظر، أكنت تفكر في شيء سوى الوطن عندما قلت هذا؟ انظر، ألم يخطر ببالك، تلك المسكينة التي تتألم لبعادك؟ إنه يعلم أن فراقه لي أسوأ من فراق الروح ومع ذلك ابتعد عني! من يحبك لن يبتعد عنك أبداً، أليس كذلك؟ ها هي أنا لن أرحل... لكني لست رجلاً... من يشعر؟

المشهد السادس
زكية، وحنيفة

حنيفة (تدخل الحجرة):

- ابنتي! ابنتي!

(تسرع زكية إلى حجرة أخرى)

حنيفة:

-إلى أين سيذهب؟ إلى أين ستذهبين؟ ابنتي! سيدتي! فعندما أكون مريضة يُحضر لي الدواء في ساعتين؛ فهذه هي طريقته لإنجاز ما يريده، مثله مثل الحجلي.

زكية (تدخل إلى الحجرة دون أن تكمل ارتداء ملابسها، ولم ترى حنيفة، ثم تُكمل ارتدائها للملابس)، وتقول:

- أخي! أخي! مت وأنت بين ذراعـي، أما أنا ففي أحضان من سأموت؟ أكان مصابا بمرض ما! فلو هذا حقاً، فليته يُصيبني... ليتني في محل أخي، فأموت في أحضانه.

حنيفة:

-ما هذا الهندام؟ ماذا تفعلين؟

زكية(ترتعد غضباً وحزناً)، ثم تقول:

- تعال إلى هنا أيتها المرأة! من قال لك أن تحضريني إلى الحدائق، وتريني الرجال؟ من قال لك أن تسلميننني خطابا مُرسلا من رجل؟ من قال؟ من قال؟ قولي أريد أن أسمع!

حنيفة:

- ابنتي! سيدتي! ما بكِ؟

زكية:

-ما بي؟ هل لا أعلم ما بي؟ إنني جُننت، فقدت عقلي، وسأقتل نفسي. أفهمتي؟ فالسبب أنتِ... أنت سبب هذا كله... كله!!

حنيفة:

- آه يا بنتي! ما الذي فعلته؟

زكية:

-ماذا فعلتِ؟ لقد قال: "من يحبني لن يتخلى عني."، ألم تسمعي؟ فصوته يملأ أرجاء المكان، ألم تسمعي؟ ألم تري كيف أن مخالب الأسد تلتف حول قلبي؟ إنه سيقضي عليّ... ألا تعلمين كيف يقضي عليّ؟ أنظري لوجهي مرة واحدة أيضاً! ألم تري الدماء تغمر عيني؟ ألم تري وجهي كلون الثري؟ تقتلني... مخالب الأسد، تقضي على... إما في قلبي... إما في روحي... فالسبب أنتِ... افهمي ولا تقولي ما الذي فعلته!! (تبكي) ليتك أرضعتني سماً بدلاً من اللبن، وبذلك ما كنت الآن وسط كل هذه الهموم.

حنيفة:

-ابنتي! سيدتي! فلتأخذ روحي يا الله! الآن ليس لدي ما أقوله.

زكية (تستعيد توازنها)، ثم تقول:

- مرضعتي! مرضعتي الرحيمة! إنني أعلم أنني وجهت إليك كلاماً عنيفاً، وصرخت بوجهك، فهذا ليس بيدي... لم أتمكن من التحكم في ذاتي. آه! إنك لا تعلمين ما بي... مرضعتي العزيزة... اللبن الذي أرضعتني إياه يجري في عظامي ، أراه أمام عيني، فعندما كنت طفلة، كنت إذا بكيت تضحكين بآسى، وإذا ضحكت تغمر عينيك السعادة. تمرضين إذا حزنت، وتموتين إذا مرضت. فقد أتيت إلى هذه الحياة ولا زال صدرك مأواي. إنه اكتفي بالبكاء علي ودموعه لا زالت قائمة على وجهه! فهل بذلك أكون قد حطمت قلبه؟ أما أنت فلست مستاءة، أليس كذلك؟ سامحتني، أليس كذلك؟ مرضعتي! أمي! اغفري لي! إني راحلة.

حنيفة:

-ابنتي أجُننتي؟ فأنتِ بذلك ستدعيني في السراية الصفراء، أليس كذلك؟ إلى أين تذهبين؟

زكية:

- آه! أنتِ تعلمين كيف يكون حبي! فإن لم أذهب، فسأقتل نفسي بلا شك، و حينها ستنهار دنياي وآخرتي... حتى لو سأُعذب في جهنم، فلتكن مشيئة الله. إنه سيبقى على قيد الحياة، هو... أنا سأخلد تحت الثرى، أما هو ربما...

(تهرع إلى أحضان حنيفة)، وتقول:

- آه! أمي! فأنتِ هي بل وثوب آخر. اتركيني! ولا تفكري بي! أتريدينني أن أفقد عقلي؟ إنني لا أستطيع أن أقتل نفسي ولا أستطيع أن أحيا ميتة. (تبكي بشدة) إني راحلة إني راحلة. فمن يُحبه فلن يتخلى عنه أبداً!

حنيفة (في حيرة شديدة):

-ابنتي! ابنتي الحبيبة! مثلي يصاب بكسر في قدميه ويجف فمه، ويبتليه الله بالآف المصائب...

زكية:

-اصمتِي! فلا تتمني له سوء! الآن لست أنا، وليس عقلي بمحله. إنني في حال أسوأ من الموت؛ إنني أتجرع العذاب، أليس كذلك؟ فبالنسبة لي لحظة من هذا البلاء أفضل من العيش! إني راحلة. من يعلم، تحت أي شجرة، أو فوق أي قبر سأرقد في هذه الليلة؟ من يعلم، عقرب أم ثعبان سيصادفني؟ من يعلم، هل سأموت جوعاً أم عطشاً؟ إني راحلة... إني راحلة ... سأذهب فإنه كان يقول مثلي: "سأذهب، سأذهب".

(تقول زكية هذه الكلمات، فتزداد حنيفة حيرة. وبغضب شديد – بأسلوب مودع) تقول زكية:

- إني راحلة، راحلة. إنه ذاهب، وأنا لا زلت هنا!

(تخرج زكية وتغلق الباب في اضطراب شديد)

المشهد السابع
حنيفة بمفردها

حنيفة (تستعيد توازنها):

- آه! إلى أين؟ انتزعت الباب! وذهبت. ابنتي! ابنتي! زكية! إنها تذهب حقاً. آه!!

(تنهار على الوسادة من البكاء)

يُسدل الستار

الفصل الثاني

(يُفتح الستار، فترى بعضاً من المتطوعين جالسين خلف قلعة "سليسترا"، وتظهر زكية في زي رجل)

المشهد الأول
(المتطوعين، العساكر،الشاويش عبد الله، زكية)

أحد المتطوعين:

-اصمتوا... اصمتوا...

متطوع آخر:

-ماذا هناك؟

المتطوع السابق له:

- ألم تسمع صوت آلة موسيقية؟

المتطوع الثاني:

-ياه! ما كل هذه الجلبة؟ إنه جندي قادم.

المتطوع الأول:

-نحن في حالة حرب...

زكية:

-إذا عزفت الموسيقى في أجواء الحروب، فعلينا إنشاد أغنية حماسية.

المتطوع الثاني:

-انظر لبراءته!

الشاويش عبد الله:

-ما هذه البراءة؟ نُنشد أغنية في ظل الحرب، فهل قامت الساعة؟!

المتطوع الأول:

-اصمت!!

وفجأة، أمن شخص يقول:

- تعال تركيا! تعال تركيا!

الكل معاً ينشد قائلاً:

آمالنا، أفكارنا إعلاء كلمة وطن
القلعة حدودنا، وأرضها، أجسادنا
زينة العثماني كفن ملطخ بالدماء
نحن العثمانيون، نستشهد في المعارك فننل السعادة
نقدم أرواحنا فننل السمعة
على رايتنا، يُرى السيف مع الدم
في سهولنا وجبالنا لا يجول شبح الخوف من الموت
في أرضنا الأسود ترقد في زواياها
نحن العثمانيون، نستشهد في المعارك فننل السعادة
نقدم أرواحنا فننل السمعة
فاسم العثماني يُرعد كل من يسمعه
عظمة أجدادنا معروفة للعالم أجمع
لا تفكر بتغير الخليقة أو الفطرة! فهذا الدم هو ذاك
نحن العثمانيون، نستشهد في المعارك فننل السعادة
نقدم أرواحنا فننل السمعة
فلتتفجر المدافع، ولتُنثر نيرانُها في الأطراف كلها
فيفتح باب الجنة لكل من يقدم روحه فداء للوطن
فما بهذا العالم يحجبنا عن الموت
نحن العثمانيون، نستشهد في المعارك فننل السعادة
نقدم أرواحنا فننل السمعة

المشهد الثاني
السابقون،والعساكر، الميرالاى صدقي بى

صدقي بى:

-من لديه الرغبة في البقاء في القلعة، فليقف على حدة

أحد المتطوعين:

-الجميع هنا يريد البقاء؛ لذا جئنا إلى هنا، فلماذا سننفصل عن بعضنا؟

صدقي بى:

- (يقول دون أن ينظر لأحد):

-يا سادة! اجتاز العدو مياه النهر، وبدؤوا يهاجموا من بالطرف الآخر من المدينة، وبعد يوم أو يومين ستتعرض المدينة للحصار الشامل؛ الله لا يكتب علينا مثل هذا البلاء، وليحمي القلعة وجنودها، فمن لم يرغب في البقاء هنا، فعليه الرحيل فوراً بأمر من الوالي.

أحد المتطوعين:

-يفوق عدد الأعداء عددنا، أتريد أن تُحد منه أكثر من ذلك؟

الشاويش عبد الله:

-عدد الجنود قليل، لما أقامت الساعة؟ فليكن أقل من ذلك أو أكثر .

صدقي بى:

-أقامت الساعة؟ أقامت الساعة؟ اصمت .

الشاويش عبد الله:

-ياه ! أقامت الساعة لحديثي...

صدقي بى (يقطع حديثه) ويقول:

- سبحان الله[٢٣]، يا سادة... إننا نواجه في الحصار الجوع والعطش، بخلاف مواجهتنا للرصاص والقذائف، فهل هناك من يريد أن ينجى بنفسه...

أحد المتطوعين (يأتي بجانب الميرالاي)، ويقول:

- سيدي! سيدي! إننا جئنا إلى هنا بإرادتنا، جئنا من أجل هذا اليوم. فبأيديكم توضحون لنا العدو ولنا التصرف، بأيديكم تسنح الفرصة! لا تستهين بحداثة سني؟ لكني أرى أنني قد عشت فترة كافية من الزمن؛ لذا حملت كفني على عاتقي متمنياً نيل الشهادة، فقد جئنا من بغداد إلى هنا بهذه النية.

الشاويش عبد الله:

-ها هو ما يقوله الجميع، وما يدور في عقولهم... ياه! ما الذي يثير استياءك؟ ماذا إذا نُفذ العمل كما أقول، أتقوم الساعة؟!

صدقى بى (يوجه حديثه إلى أحد المتطوعين دون النظر إليه)، و يقول:

- أخي، لا أوجه لك الحديث إليك.

أحد المتطوعين:

-إلى من؟

متطوع آخر:

-أتعتقد أننا بالدناءة التي تجعلنا ندير وجهنا عن العدو دون مواجهة؟

صدقي بى:

-حسناً! فأنتم مثلنا تريدون الموت في سبيل الوطن، وإن الله لا يُضيع أجوركم؛ فإذا فقدتم أرواحكم خُلدت أسماءكم؛ فالإنسان بعد الموت يترك سيرة طيبة، ربما كانت أفضل من الحياة الدنيا. خلصوا قلوبكم من رهبة الموت، فإن خفتم أو لم تخافوا، فسيأتي يوم تذوقونه، فلا يليق بالإنسان الهروب من شيء لا مفر منه.

(يخاطب زكية) قائلاً:

٢٣- ينفي عن الآلهة أى نوع من الإهمال أو التقصير.

- أيها الطفل

زكية:

-أفندم.

صدقي بى (ينظر إليها بدهشة)، ويقول:

- من أنت؟

زكية (بتوتر شديد):

- آدم...[٢٤]

صدقي بى :

- ما اسمك ؟

زكية (تستعيد توزانها) وتقول:

- آدم يا سيدي .

صدقي بى (يخاطب نفسه) قائلاً:

- يالها من خيالات طائشة.

(ثم يُخاطب زكية):

- مصرح لك بالخروج من القلعة.

زكية:

-أليس هناك تصريح للبقاء؟

صدقي بى:

-بني!

زكية:

-إنني سأموت من أجل الوطن، فهل تبغي شيئا آخر؟

صدقي بى:

-ليس بإمكانك استخدام السلاح؟!

زكية:

-إنني أقدم روحي إليك، بينما تقول أن سني صغير؛ هل أنتم

٢٤- تأتى بمعنى رجل أو إنسان.

قادمون إلى هنا من أجل القتل؟ أم من أجل الموت؟ فإذا كان من أجل القتل فاقتلني، أما إذا كان من أجل الموت، فبكل صدق فالموت بالنسبة لي هين بالمقارنة بك.

عبد الله (يقترب من الميرالاي)، ويقول:

- إنها الساعة إذا ظل هذا الطفل بيننا.

صدقي :

-حتى إذا فقدنا القلعة ستقول أنها الساعة، أليس كذلك؟

عبد الله :

- لا يا سيدي، لن تُفقد القلعة وأنا على قيد الحياة، ثم إنه بعد مماتي لن ستطيع التلفظ بكلمة، فكيف سأقول: " أقامت الساعة؟ ".

زكية:

- ماذا تريدون مني؟ أليس الوطن هو ملك الله؟ أينظر من يستولي عليه إلى نحالة أو سمنة أضحيته؟ فمن فضلكم، اسمحوا لأولادكم بالاستشهاد في سبيل الوطن؟ فالشباب يموتون من الدرن والوباء، فما الذي يحدث إذا ماتوا بالرصاص أو القذائف؟

عبد الله:

-ما الذي يحدث؟ إنها الساعة إذا ظل الطفل ذاك هاهنا!!

صدقي بى (ينظر لوجه زكية) ويقول:

- طفل... (يخاطب ذاته) يريد الموت لمن لم يخط شاربه بعد، يريد الموت لذوات الشيب... ماذا يمكنني أن أقول، فليغفر الله له من أجل الوطن.

المشهد الثالث

السابقون، وإسلام بى

إسلام بى (يعدو نحوهم وبصدره العديد من الإصابات)، ويقول:

- سيدي ! سيدي!

زكية:

-آه!

إسلام بى :

- اجتازوا المياه!

زكية:

-بصدره!

إسلام بى:

- إنهم عشرة آلاف، تصدينا لهم ونحن ثلاثمائة شخص. ظل الصراع قائما مدة ثلاث ساعات، في ثلاث ساعات... آه في ثلاث ساعات... صار كافة الأصدقاء رمادا، رحل الجميع إلى الآخرة، حتى أضعفهم أسر اثنين من العدو، وكان ينم في جنائزهم، وحتى الآن يجول العدو بجانبهم دون أن يقترب من أحد منهم مثله مثل الصقر الذي رأى أسدا نائما، سيدي! كنا ثلاث مائة شخص، وقفنا بجسارة أمام عشرة الآف حربة، كنا نقفز بين القذائف، ويهطل على رؤوسنا الرصاص كالمطر. وفي النهاية بدأ القتال، وتوفي الجميع وحينها أبرزنا من هو العثماني... آه! توفي الجميع، عدا سبعة أشخاص... لكننا لم نتمكن من البقاء أصحاء، يعلم الله أنني تمنيت الإلحاق بهم... يعلم الله، إنني كنت في الصدارة... نفذت ذخيرتي، وكُسر سيفي، فحينها نالوا مني، ولم أستطع أن أنجو بأي شكل من الأشكال، بل آتوا بي مسحولا إلى القلعة ، فماذا كنت أفعل؟ تعقبت الموت لكني لم أفز به، بل لحق بي من كان يتعقبني، وأُسرت. آه، الوطن! الوطن! حياتك بخطر وأنا لا زلت سالم.

(وفي هذه الأثناء تقترب زكية من إسلام بى تدريجياً، ثم يُغشى عليه في أحضانها، وعندئذ تجمهر الجميع حولها)

صدقي بى:

-عبد الله، تعال إلى هنا. الآن خذ السيد واذهب به إلى حجرتي، اعتنى به؛ استدعي له الجراح، أحضر إليه الطبيب، لا تبتعد عنه دقيقة واحدة إلى أن آتي، أفهمت؟

عبد الله:

-حسناً، لكن، ماذا إذا شن الأعداء الحرب، فهل لا أتواجد بها؟

صدقي بى:

-هل ستقوم الساعة إذا لم تتواجد؟

عبد الله:

-نعم! شبه ذلك... هل ستقوم الساعة؟ لن تقوم الساعة، لكن ماذا عن الجميع؟!... (يستعيد توازنه) إنني أسعى أيضاً لتحرير القلعة، لكن أتقوم الساعة إذا حاولت إنقاذ فتى باسلا شجاعا؟

(يضم إسلام بى إليه، ويريد أن يرفعه)

زكية:

-ابتعد! ها هو روحي في أحضاني... ها هو يحتضر... فهل ستأخذه! أتعلم ؟ أتفهم؟ إنني أحبه.

صدقي بى:

-طفلي ما بك؟

زكية (تترك إسلام للشويش عبد الله وهي في حيرة شديدة، ثم تحاول أن تستعيد توازنها، وبالفعل تتمالك تدريجياً، وتقول:

- من؟ هل أنا؟ يعني، أنت لا تعلم... يعني... يعني...(تستعيد توازنها كاملاً وبهدوء مصطنع) تقول :

- إنك لا تفهم، إنني من مدينة "منستر"[٢٥]، أحيا حتى هذه اللحظة بفضل هذا الرجل. وها هو يموت... أترون؟... يموت... هل بإمكانكم أخذ روحي ومنحها. إنكم لن تمنحوها له، أليس كذلك؟ وإن لم يكن فدعوه، فإني ولدت بقصره، فإذا كان سيموت، فليمت بين أحضاني. ماهو الوطن؟ تعلمون، ماهو القلب؟ ألا تعلمون؟

صدقي بى :

- اذهب... اذهب يا صغيري، اذهب معه.(يمسح دمعه، ثم يقول :

-إنني نسيت كيف تدمع عين الإنسان منذ سنوات.

(تذهب زكية عقب إسلام بى)

٢٥- منستر: مدينة في ماكدونيا تقع في منتصف جزيرة بلكان.

المشهد الرابع
صدقي بى، ورستم بى

صدقي بى:

- فُقد! فهل من رجل يُفقد؟ خاصة الفتاة... إنني أعلم أين هي، إما بجوار والدتها أو بجوار أخيها... إنني لا أستطيع أن أتخيل أنهم في القبور، لا أريد أن أرى هذا المنظر، ولكنه يعلق بذهني (يجول بنظره في خطاب ويبتسم بمرارة شديدة) الرجل البائس يرغب في مواساتي ويقول فقدت؛ هل ذهبت زكية هكذا؟ جئت إلى هذه الدنيا بمفردي، وها أنا بمفردي، بل أجاهد أيضاً بمفردي، فمن وجهة نظرك ما لفرق بين حدود الوطن في ظل المعارك، وحد الآخرة؟ فعزرائيل في الحالتين يجول باستمرار حولنا، فإن لم يكن اليوم فجميعنا ذاهبون غداً.

رستم بى (يقترب من الميرالاي)، ثم يقول:

- سيدي! أتأذن لي؟ سأسألك أمراً؛ كان لي صديق في المدرسة الحربية اسمه أحمد، كان يشبهك تماماً، ذهب إلى مدينة "منستر" وهو في رتبة ملازم، وهناك فُقد، ولم أعلم عنه شيئاً منذ ستة عشر عاما أو سبعة عشر عاماً؛ فلو لم تقل بالأمس أنك لن تستقيل من الجندية، لقلت أنك صديقي ألديك أخاً هكذا؟ فلو لديك، فهل بإمكانك أن تخبرني عنه؟

صدقي بى:

- لا يا سيدي! ليس لي أخ هكذا، ولكني أعرف الرجل الذي تسأل عنه، أعرفه مثل معرفتي بنفسي، فقد كان في مدينة "منستر"، كان له صديق يُدعى علي بى، انظر كم نحب أحمد بى، فأحمد بى كان يحب علي بى هكذا، ربما تعرف علي بى.

رستم بى:

- كيف لا أعرفه، طفل مسكين... إنه بمثابة أخ لي؛ فالأخوة لا يمكن

أن تتقارب أفكارهم وطبعاهم هكذا، حتى و إن كانوا أشقاء، لكنهم جعلوا من جسده حقلا للطلق الناري.

صدقي بى:

-أتعلم لما فعلوا ذلك؟

رستم بى:

- لا، فإنني حينها كنت في بغداد، وقبل أن ينقل الخبر من ذلك البيت إلى ما يقابله، كان قد انتشر في كافة الأرجاء؛ لذا كان يخالطه الكثير من الكذب، فما الذي يُدرك من أخبار قادمة من مدينة "منستر" إلى "بغداد"؟

صدقي بى:

- أود الحديث فاستمع، كان علي بى متزوجا في مدينة "منستر"، وذات ليلة أتى إلى منزله ضيف عديم الأخلاق، هو قائد الطبية المنتسب إليها. أي ضيف! أشهر الملعون البائس سيفه العالق بخصره من أجل الدفاع عن الوطن، وأراد الاعتداء بقوة على حرم علي بى؛ فماذا يفعل الجندي الإنسان لكلب هكذا؟ أطلق عليه الرصاص، فأرسل روحه إلى جهنم؛ وبالتالي نال تصفيقا حادا من كل من يعرف ماهية الحمية العسكرية وشرف الإنسانية.

رستم بى:

- من ذاك الذي لم يصفق له؟

صدقي بى:

- ديوان الحربية![٢٦] إنه لن يخطر ببالك، أتعرف أعضاء الديوان آنذاك؟ فجميعهم جنود اعتادوا الجلد، وتقبيل الأقدام، والخدمة بمنازل الأسياد وملء قضيب السلاح للضباط الأعلى منهم رتبة! حكموا على علي بى بإعدامه رمياً بالرصاص مثل خائن الوطن أو الهارب من الخدمة العسكرية

رستم بى:

٢٦- المحكمة العسكرية العليا.

- الله الله !!!

صدقي بى:

- الآن، اعتبر نفسك مكان أحمد بى، تتلقى أمراً بتزعم المجموعة التي ستُلقي الرصاص على علي، فماذا ستفعل؟

رستم بى:

-الله لا يحكم بذلك! أأطلق النيران!؟ لن أرجح الدناءة.

صدقي بى:

-لقد كان يفكر مثلك تماماً؛ فأحمد بى سواء أكان قد تلقى الأمر أملا ، فقد ذهب إلى ديوان الحربية مباشرة، فقد كنت بجانبه؛ لذا أعرف الموقف بكافة تفاصيله، إذ دخل الديوان وقال: "جئت لأفدي العسكري بروحي، فإذا أردتم فافتلوني معه، إنني على أهبة الاستعداد، لكني لن أصبح جلاداً؛ فالعمل الذي كلفتوني به ليس الجلد بل القتل ، فهذه الخدمة تملوها على عبيدكم فحسب!".

رستم بى:

-الأسد أخي! الإنسان أحمد ! فالرجل يكون هكذا.

صدقي بى:

- إنه لم يفكر مثل من كان بالديوان؛ إذ يعتقدون أن علي بى قاتل، وأن أحمد بى مخالف للأوامر، فقتلوا علي، بينما أحمد... فقد طردوه من الجيش، أتعلم ما عواقب طرد عسكري من الجيش؟

رستم بى:

- فليبلى الله من حكم عليه بكافة أنواع البلاء ! من المفترض ألا يدافع الإنسان عن شرفه! فلا بد للعسكري أن يكون جلاداً! أليس كذلك؟

صدقي بى:

- مسكين أحمد، فقد تزوج في مدينة "منستر" ولديه ابن في سن الثالثة، وابنة تبلغ من العمر أربعة عشر شهراً، وبسبب ما تعرض له من خزي وإهانة، لم يعد إلى منزله خجلاً من رؤية طفليه البريئين

اللذين لم يقترفا ذنب قط؛ فالرجل الذي لمتوارى وراء المتراس عندما تُلقى المقذوفات والطلقات النارية، إذا رآه أحد لبكى خجلاً؛ فقد يتوارى في الغابات وكهوف الأشجار مثل الحيوانات المتوحشة، وفي كل يوم كان يحاول ألف مرة أن يقتل نفسه، كان يفكر في أن وجوده في الدنيا كان برغبة منه ، وأن برغبته أيضاً يمكنه الذهاب إلى العالم الآخر، لكن كل ما قرأه وسمعه عن الحكمة الإلهية وقدر الإنسان وأحوال الدنيا، يجول أمام عينيه في كل دقيقة، فرسخ في عقيدته أن هناك إله لديه قدرة قاهرة يخلق ما يشاء ، فقد كان يُحب الله ويعبده حق العبادة، ولكن الخوف قد تملكه؛ فلم تكن لديه الشجاعة للتضرع إلى الله طلباً للرحمة، لكن الإنسان... الإنسان بنظره كائن دنيء يسعى في قمم الجبال بحثاً عن لقمة تُشبعه يلتهمها بفمه، فكلما يفكر في أنه إنسان، يحاول أن يخدع نفسه. آه! لو تراه أمه التي حملته في أحشائها ثم أتت به إلى هذه الدنيا لمزقت أحشائها مائة ألف قطعة. الدنيا... الدنيا... انظر مرة بعينيه، حيث القدر، طفل... الدنيا بيده كرة... يتلاعب القدر، فتتقلب الدنيا، يلعب الطفل فتتآكل الكرة... الآن، الشيء الذي يُرى أحمر اللون يصبح أصفر في لمح البصر، والشيء الذي يبدو مستقيماً يلتوي في لمح البصر أيضا .(يفقد أعصابه) آه! أصبت بحالة من الجنون بسبب تلك الخيالات التي جعلت من الشهب صواعقا ، تلك الخيالات التي قسمت لعبة طفل، والثرى، ودنيا الظلم، بل وقسمت أيضاً عالم الابتلاءات إلى مائة ألف جزء في ضربة واحدة، ذلك العالم الذي لا يُجدي شيئاً سوى قبرا لهذا الإنسان ...

رستم بى: (يقطع حديثه)، ويقول:

- نحن نتحدث عن أحمد بى، لكنك الآن تبدأ في الحديث عن نفسك.

صدقي بى (يستعيد توازنه)، ويقول:

- لا! أحياناً عندما أتحدث يشرد فكري هكذا؛ فقد استحضرت أمام عيني المصائب الأليمة التي مر بها ذلك المسكين...

رستم بى:

- ما من مشكلة... ثم ماذا حدث؟ (يخاطب نفسه قائلاً) هذا أحمد بلا شك، فهو لا يريد أن يُخبرني عن ذاته.

صدقي بى:

- ماذا سيحدث بعد؟ ولأنه لم يتمكن من الذهاب إلى الآخرة، ذهب إلى الحجاز الذي هو عالم من يزهد في الدنيا أملاً في الآخرة، وهناك انبهر بالعادات وانتفت عنه النيران، لكنها لن تؤثر في ذاته.

رستم بى:

- أكنت بجانبه في الحجاز؟ فأنت تتحدث كمن يحكي عن ذاته!

صدقي بى:

- قلت لك أني أعرف أحواله كلها، أعرفه كما أعرف نفسي.

رستم بى (يخاطب نفسه)، ويقول :

- لم يعد هناك شيء قط.

صدقي بى:

- أمر غريب! فعندما كان بالحجاز، كان يأبى التفكير في الدنيا، نسي زوجته وطفليه، لكنه لم ينسَ وطنه بأي شكل من الأشكال، ولم يستطع أن يُخرج من قلبه ما فعله الوطن من أجله... وفي النهاية، كانت المهمة على حساب ذاته فدخل إلى العسكرية، لكنه لم يكن عسكريا، بل جنديا...

رستم بى:

- هل كان جنديا؟

صدقي بى:

- جندي... فالتجنيد يستمر خمس سنوات كاملة، وإذا تخلف عن صفوف الجيش لن أستطيع أن أكون قائداً!

رستم بى:

- ألم تستطيع أن تكون قائداً؟ هل ـنت...؟

صدقي بى (ينظر إليه متوعداً)، ويقول:

- لا، لست أنا ... هو... أحمد بى! (يستعيد توازنه مجدداً) لو ظل العمل بهذه الدرجة... إنه لم يتحدث مع أحد عن نفسه حتى يستعيد رتبته القديمة. فمن يرغب في الطرد مرة أخري من العسكرية؟ لكن، بعد أن استعاد رتبته استطاع أن يرسل خطاباً إلى صديقه القاطن في مدينة "منستر"، من أجل أن يطمئن على كل من بعائلته كبيرهم وصغيرهم، كان يسعى لأن يطمئن عليهم وأنهم بخير، كُتب في أول خطاب يستلمه أن زوجته قد رحلت إلى العالم الآخر بعد معاناة مع مرض الدرن طيلة خمس سنوات، وقبل أن يمر عامان، استلم خطابا آخر من صديقه - فماذا تنتظر منه- توفي ولده، وعندما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة نطق بكلمتين: الأولى " والدي العزيز"، أما الأخرى فهي "الوطن"، فعندما قال "والدي" كانت عيناه محدقة في السماء؛ حيث أنه كان دائم البحث عنه، وعندما قال الوطن كان ينظر إلى ما حوله؛ فكانت نظراته تقول: " إنني سأرقد، فلا تجعلوا قبري مدهسة للأعداء. "... أتعتقد أن الأحزان قد انتهت مع هذا؟ لا! فقد أرسل له صديقه خطاباً آخر يقول فيه: " فُقدت ابنتك. "، كان يريد أن يقول أنها قد ماتت، لكن ربما عجز عن ذلك! ضعف قلبه! تعب من الابتلاءات التي ألمت به، حتى أنه لم يستطع أن يُفرط فيما يقدمه إلى أحمد بى من أحزان. ها هو حال أحمد بى أفهمته؟! الآن هو مثلك، بل ربما رتبته أعلى منك، بالله عليك إذا صادفته في مكان إياك أن تقترب منه وتبدي معرفتك إياه! ولو أردت لا تسلم عليه، فإذا سمعوا اسمه لعزلوه مجدداً، فهو لا يستطيع زيارة قبر زوجته أو ابنه أو ابنته، فربما لن يدعوا لقبره مكانا داخل الوطن؛ فهم عائق في محياه وعائق في مماته.

رستم بى:

- سيدي! صديقي أحمد بى، بل أخي... مات... مات، فإذا بحثت في قلبي وفي ذهني لن تجد حتى خياله، لكن لابد أن يكون لي أخ جديد... هل بإمكانك أن تحل مكانه؟ لو اعتبرتك مكانه أتقبل؟ ستقبل أليس كذلك؟ إنني أعلم أن أحمد بى توفي؛ وأنا أريد محبة صدقي بى؛ لذا إن

سمع أحد مني اسمه بعد اليوم، لأحضروك ومن ثم فلتضربني على وجهي ولتمزق رأسي ومخي.

المشهد الخامس
السابقون، وأحد المتطوعين، والشاويش عبد الله

أحد المتطوعين (يأتي بجانبهم وهو في حالة من الهلع)، يقول :

- سيدي! سيدي! هجوم... الأعداء قادمون...

الشاويش عبد الله:

- ألا نعلم بذلك؟ أتقوم الساعة لمجيء الأعداء؟

صدقي بى:

- (يخاطب نفسه)، ويقول:

- ذلك الطفل لا يفارق ذهنه بأي شكل من الأشكال. فما هذا الشبح الغريب! مر ثلاث سنوات على وفاة ولدي...

(يبدأ جو المعارك، فيُدق البوق، ويجري الجميع حاملاً السلاح على رأسه).

يسدل الستار

الفصل الثالث

(يُفتح الستار، فتُرى حجرة مرتبة، وفيها يرقد إسلام بى على سرير)

المشهد الأول
إسلام بى، وزكية

زكية (تخاطب نفسها):

- نائم، لا زال نائماً، فما أعظم تمسكه بكلمة يعد بها! انظر فكم من وسام فخر يُقدم له على تلك الإصابات الدامية القاطنة بصدره! فما الذي كان يقوله الحكيم؟ إذا مر اليوم بأمان، فقد تجاوز مرحلة الخطر، أليس كذلك؟ آه، آمل ذلك، ليت كلامه صدق... فهل جُننت؟ أبداً، حاشا لله، فإذا كان هناك خطر فهل سيهدأ قلبي هكذا؟ كيف ينام بأمان؟! مجرد، أن يمتد ثباته دقيقة! حتى وإن نقص من عمري عام فإني راضية.(تبتسم):

- كم يخطر ببال الإنسان أفكار مجنونة، ترى... لتكن مرة واحدة... آه! كنت أحقد على خيالي بمجرد أن يشرد! جنون! غدا يقولون أنه رآك في حلمه ذات ليلة، ألا تُقدم روحك في سبيل البشرية؟ إنه نائم، ما أجمله وهو نائم، فإذا نام الملاك، ينام مثله، ما أروع شعره مفروداً على الوسادة، ليت صدري وسادته... وليت شعري لحافه؛ فالإنسان يقول أشياء هكذا وبعدها لا يستطيع التحمل. ضممته إلى صدري، فتخيلت أن كبدي، وقلبي، وعقلي قد عادا إلى صدري وبين ذراعي (يُسمع صوت المدافع من بعيد) تباً! فالمريض لا يدرك، المصاب لا يفكر... إذا كانت الروح تُمنح للجميع من فوهة المدفع، فحينها لما بدؤوا في القذف. أجئتم للموت في سبيل وطنكم؟ أم لماذا خرجتم من وطنكم؟ حسناً! خرجتم، فليتكم تموتون ... فعندما تواجهوا الموت،

ستفرون مثل بطة رأت صقراً؛ فكلما رأيتم رجلا يموت تطاردونه كنمر يستبق السحاب... أليس كذلك؟ فجل الأرواح التي قبضتموها ستدخل أجسادكم! فالرجال الذين كتبتم النهاية لأعمارهم سيكونون أنتم!

(تتزايد أصوات المدافع تدريجياً، فينهض إسلام بى، بينما تختبئ زكية بإحدى زوايا الحجرة)

إسلام بى:

- اقذفوا! اقذفوا! أيقظوا الوحوش النائمة. الآن وجوههم أمامكم، ومخالبهم في صدوركم ... فما الذي بجسدي؟ ها! إنني مصاب... مع الأسف المعارك التي انتصرت فيها... السيوف التي حطمتها... أكانت الفرق العسكرية التي أبدتها جميعها حلما! يا رب العالمين[٢٧]! ما أعظم ذنب اقترفته يا ترى! فحتى في أزمتي هذه يبدو لي وجه زكية كلما أغمضت عيني وكلما فتحتها... فعندما يكون الإنسان في النار فهل يقترب من عدالة تظهره وكأنه في الجنة؟ العالم هكذا! بالطبع قد مر زمن طويل منذ أن أُصبت... يريد أن تمر شهوراً على هذه الرؤى والأحلام.

(تتزايد أصوات المدافع)، يقول بغضب:

- آه ! ليس هناك رجل يتصدى للأعداء، يلقى بقذيفته على التراب الأسود، وعلى الصخور المنحدرة. لن يستطيع توقع البسالة وهو يرانا خلف المتراس، فليكن اثنان على واحد... خمسة على واحد... نحن مستعدون لمواجهة الرصاص بصدورنا، ومواجهة الحراب بقلوبنا، لكن إذا أراد قمع الحمية بالنفوذ لاستمسكنا بالحجر لمواجهة الحديد (يزداد صوت المدافع) انفجار! انفجار! ليس دويّك داخل هذه القلعة هو ما يثير الخوف في قلوب الأطفال والسيدات؛ فهنا لن تجد طفلاً أو امرأة خائفة حتى وإن انفجرت كرة نارية. كم كنت على يقين خاطئ! فقد كنت أعتقد أنه ليس هناك أربعون شخصاً بإمكانهم التضحية في سبيل الوطن، وغالبا كان الأعداء يرون العثمانيون مثلي!

٢٧- سيد الكون ، الآلهة.

بلى، فالعثمانيون يبدو وكأن الوطن لا يهمهم؛ فعندما يبدو هكذا تتوهم بأن الرجل الذي يُحادثك مخلوقا من حجر؛ فهم يبدون أمامك مثل العدو! فستتيقن من أن هناك يدا أجنبية ستمتد ساحقة أراضي الوطن المقدس، ها هو الوقت يحين فيتبدل الخلق، فلا يستطيع الإنسان أن يُفرق بيني وبين قروي مسكين، ها هو الوقت يحين فترى التركي ذا العمامة، والفلاح ذا الكلام المعسول والوجه الناعم يتخلى عن كل هذه الملامح الساذجة، وتتجلى روح العثمانيين روح الشهامة، فأضعفهم جعل من أسنانه سيوفاً ومن يديه قذائفاً، لكن عندما يدافع أحدهم عن ذرة تراب من الحدود فلا يغفل عن لبوة تحمي صغيرها أو عن رجل يبر والدته، فقد كانوا مضطرين إلى عدم استخدام السياط إلا عند أسر عسكري من الأعداء، الآن يبدو كالعدو، فالعسكري الذي أحضرناه بالسياط والحراب، لن نتمكن من ردعه بالسيف أو بالحربة.

(ينهض بصعوبة من مكانه)، ويقول:

- أستغفر الله! لن تُحتل هذه القلعة بالقذائف التي تلقونها، لكن إذا تمكنت من ذلك، فاذهب، وليرافقك عزرائيل، لكن فليقبض أرواحنا أولاً وبعدها ربما... هل لا ألا يرى عزرائيل الأعداء؛ فدماء خمسة أشخاص سالت في التراب، فهل لا يستطيع قبض روح أحد سوانا؟.

زكية:

- يا ربي! الآن أين المفر؟ فمنذ اثني عشر يوماً وعقله ليس برأسه، فالأفضل أن أُخفي نفسي؛ فاليوم غير مناسب له.

إسلام بي (يزداد عليه المرض تدريجياً)، ويقول:

- اقذف! اقذف! فإن خشيت مواجهتك فإني لا أستحق الانتساب إلى العثمانيين ! فحينها سأكون عديم المروءة كعسكر الأعداء الذين قد قمت بتعقب ثمانية منهم معهم واحد وأربعون سيفاً في نصف ساعة!

(يسقط مجدداً على السرير)

زكية (تنهض من مكانها عند سماعها لهذه الكلمات وتذهب إليه بعجلة)، وتقول:

- سيُتعب نفسه مجدداً...

إسلام بى (ينهض من سريره):

- من هو .

زكية (تحاول أن تُخفي وجهها)، وتقول:

- ليس هناك أحد يا سيدي... إني عبدك... كُلفت بخدمتكم أنا والسيد عبد الله معاً...

إسلام بى:

- هذا الصوت! بعد إذنك كم يوم وأنا راقد هكذا؟

زكية (تقول بأسلوب باعث للحزن):

- هل أعلم؟ إنني بجانبكم في كل ليلة... وقد مر زمن طويل...

إسلام بى:

- تعال إلى هنا... إلى هنا... اقترب أكثر... من أنت؟

زكية (تحاول أن تُخفي ذاتها باستمرار)، وتقول:

- من؟ أنا؟ هل عبدك؟ سيدي الميرالاي إنني هنا لخدمتكم...

إسلام بى:

- آه! غير ممكن... فالله لا يخلق زكيتين، (يمسك يداه) تكلم... تكلم بالله عليك... أرقدت بين أحضانك عندما أغشي على؟ أأنت من كان يجول أمام عيني وأنا في الأزمة؟ أنت زكية، أليس كذلك؟ بالله عليك لا تُخفي علي! والله أنت زكية، فإن لم تكن زكية، فأنا بلا شك قد استشهدت، فأرسل الله لي ملاكاً في هيئة زكية، تكلم، إذا كنت تحب أحداً، تكلم من أجله، هل أنا في الدنيا أم بالجنة؟

زكية:

- هناك من أحبه في هذه الدنيا، هو أنت، ومن أجلك، أنا زكية، أنا زكيتك، أنسيت قولك: "من يُحبني لن يتخلى عني."، ذلك الذي تلفظت به وأنت خارج من مدينة "منستر" ؟ فصدى صوتك لا يزال عالقا بأذني، وتأثيره لا زال بقلبي.

إسلام بى:

- أتعايرينني الآن لأني جئت إلى هنا وتركتك؟ تتخلي عن هنائك وعزتك وأنوثتك وسيادتك من أجلي؛ في يوم من الأيام كنتِ تطعمين المسكين، أما الآن فأنت بحاجة إلى لقمة عيش، كل هذا من أجلي، كان الخدم على بابك في انتظار إشارة، أما اليوم فأنت في خدمة مصاب، كل هذا من أجلي، أما أنا فوالله الذي خلقني من العدم كنت لا أود أن أتركك، لكن أتعلمين أني أأومن بأن الوطن من الإيمان؛ فمن لا يحب وطنه لا يحب إلهه أيضاً...

زكية:

- آه، كم تزداد عظمتك كلما فكرت بالوطن؛ تلك الجلالة التي أراها بقلبي كلما تذكرتك ، تكلم! قل لي مثل هذا الكلام، فكلما سمعته تزداد حياتي، وتتفتح الورود بقلبي، وتضيء الشمس فكري، فبسبب حديثك أصبحت رجلاً، غداً ستذهب إلى المعركة، وبلا شك ستكون أمام الجميع! وأنا أيضاً سأتواجد بالقرب منك مجازفة بحياتي، ربما لا أستطيع أن أشاطرك موتي... فأنت العظمة... أنت البطولة... تسعى جاهداً من أجل الوطن، وأنا من أجلك، أنت تحيا بفضله وأنا أحيا بفضلك.

(يُسمع دويا من الخارج)

إسلام بى:

- ما هذا؟

زكية هانم:

- لا أعلم.

المشهد الثاني
السابقون، وصدقي بى، وعدد من الضباط

(يدخل الواحد تلو الآخر)

صدقي بى:

- نود أن نجتمع هناك، ولنرى ما الذي نريده.

عقيدٌ:

- أبعد ذلك يبقى هنا شيء بحاجة إلى إيضاح؟ فمن سيحمي القلعة؟ ألا تُسلم الدولة هذا المكان للسلطان؟ فها هي قذيفة يحملها السلطان بين يديه؛ لذا كيف للعسكري الفوضوي أن يحارب؟ فلنقف هناك أيضاً...

الشاويش عبد الله:

- هاي! أتقوم الساعة لوفاة السلطان؟

العقيد:

- اصمت أيها الوغد! فالشفقة كل الشفقة على المساكين قاطني القلعة! فهنا إن لزم الدولة جنوداً، أمد لها السلطان يد العون.

(يستعد كل الموجودين من ضباط والعساكر للرد)

إسلام بى (يهب من مكانه وهو في حالة من الغضب الشديد)، ويقول:

- أيها الوغد، أأنت شيطان؟ أأنت أسوأ من الشيطان؟ فماذا يكون أسوأ من الشيطان؟ جاسوس... بالتأكيد هذا الكلب جاسوس، هذا بلا أخلاق! فإذا وضعت الدولة هذه القلعة وديعة في يد الباشا، فما الذي نفعله هنا أنا وأنت؟ ما هو العون الذي تنتظره من القائد؟ فقذيفة العدو تُقسم كل من يَقّدِمُ، فهل سيضربهم هو؟ أمت أنت؟ أليس كل من يقطن بتلك الناحية سالماً؟ سيأتي العون فماذا سيحدث؟ هل سيلحق العسكري بمكان القلعة؟ ألم تأكل من خير هذا الوطن؟ ألم تُرتزق من فضل هذا الوطن؟ نلت هذه الرتبة في حين لم يكن لك الحق في الخدمة، ومع أول خدمة تؤديها لهذا الوطن، تسلم القلعة

ليد الأعداء؟ أيعلقوا ذلك السيف على خصرك قائلين سلمتَ القلعة بمحض الصدفة؟ لماذا أنتم واقفون؟ لما لا تطلقون النيران على هذا الكلب؟ ألديكم المقدرة لتحمل سماع كلمة التسليم هنا؟ هل تجمدت دماؤكم؟ هل توقفت أفئدتكم؟ لما تقفون وفي أعينكم تلك النظرات الحائرة؟ ألا يوجد هنا عثماني غيري؟

(يريد أن ينقض عليه، و يتدخل الضباط بينهما).

وليقل الضباط ما يقولون.

العقيد:

- اصمت أنت أيضاً!

إسلام بى (يخاطب رستم بى)، ويقول:

- انظر ما الذي ينبغي عليك فعله، أتقف مكتوف الأيدي.

رستم بى:

- سأدع البندقية ردي على كل خائن يسعى لتسليم القلعة.

صدقي بى:

- كفي! سأطلق النيران على كل من يتفوه بكلمة التسليم هذه.

الضابط الأول:

- ماذا؟ أتأذن لهذا الخائن بالعيش؟

الضابط الثاني:

- نحن في مواجهة العدو، فهل سنأسف على البارود والرصاص؟

إسلام بى:

- إنني سأقسمه إلى نصفين بالسيفٍ!

الضابط الثاني:

- فما الجدوى من غمس السيف في هذا الدم المتسخ المشؤوم؟

الضابط الأول:

- فكر جيداً! فهناك خطر في تركه على قيد الحياة

صدقي بى (يخاطب الشاويش عبد الله)، ويقول:

- أحضر هذا! واحبسه في إحدى الحجرات القائمة تحت الأرض، ودع

اثنين من الحرس أمام بابه .

إسلام بى:

- سيدي، لما لا تفكر بالعواقب الوخيمة التي ستترتب على ذلك؟

صدقي بى:

- الحبس مثل القبر، يبث الإحباط.

المشهد الثالث

السابقون، وضابط آخر

(يأتي من الخارج)

ضابط آخر:

- احتشد الأعداء بالطرف الأيسر، وعلى رؤوسهم السلاح، على رؤوسهم السلاح!

(يُدق بوق الملاحم، فيحتشد الجميع)

المشهد الرابع

صدقي بى ، وإسلام بى، وزكية

صدقي بى (يستوقف إسلام بى)، ويقول:

- توقف قليلاً، فهم كافين لمثل هذا الهجوم، تعلم أن القلعة بخطر؛ فليس هناك قوى مساعدة، أو طعام، أو نقود،ولم يعد هناك ضباط، الله يعلم، لكن الدولة ستنفصل عن القلعة.

إسلام بى:

- سيدي ما هذا الحديث! أي دولة تنفصل عن قلعتها؟ أيها القائد ماذا تفعل؟ عدد الأعداء يفوق عدد جنودنا، وهم على ثقة من حميتنا؛ فلن تزعزع صفوفهم؛ ليت الرصاص أصابني وانتفلت إلى العالم الآخر، على أن أسمع مثل هذا الكلام منك.

صدقي بى:

- ولدي، إنني لا أفكر قط في تسليم القلعة، لكن أبحث عن حيلة لإنقاذها، فمن يريد أن يُسلم القلعة لا يُناقش مثل هذا الموضوع معك.

إسلام بى:

- حيلة للنجاة... نحن سنحارب... سنموت... لن نسلمها... والسلام[٢٨].

صدقي بى:

- هناك حيلة رائعة لإنقاذ القلعة، في الحقيقة يُريدها رجل سيموت.

إسلام بى:

- إنني لم أمت بعد .

صدقي بى:

- لم تمت، لكنك مصاب.

أسلام بى:

- سبحان الله! ألا يموت المصاب؟ سيدي فكر فيما تنطق به، فمن أجل الوطن سأموت وإن كنت مصابا؛ وسأموت وإن كنت بصحة جيدة، ليتني أموت مرة ثم أحيا ثم أموت مجدداً.

صدقي بى:

- هل بإمكانك الهجوم الليلة على جيش العدو وإشعال النيران بجبهته؟

إسلام بى:

- إنني على مقدرة للقيام بذلك، وإن استوجب الأمر لأشعلت جسدي وجلست على تلك الجبهة، ولكن هل من الممكن الهجوم على الجيش؟ إنني لا أعرف المكان هناك .

صدقي بى:

- هل تكمن المشكلة في المكان! تفكيرك يبدو جنوناً؛ فالأمل بنسبة واحد بالمائة إن يتحقق أولا... إلقاء القبض وإطلاق النيران

٢٨- ها هو الختام.

دون جدوى يعني قصوراً... إذا أمكن أن تتنازل وتأتي إلى الجبهة، سترى بعينك الهلاك ، بينما أنا سأجد بالقلعة ألف شخص؛ ففي تلك الأوقات العصيبة لابد من العمل، وتوقع كافة الحيل حتى ما يبدو منها فارغاً، وهذا يقيني! كي أقدم قراراً؛ مساءً، الليلة، سأهجم على الجيش، لكني أبحث عن شخص يقف بجانبي .

إسلام :

- ألست كافياً لهذا الهجوم؟

صدقي بى:

- أتعتقد أني أبحث عن شخص ذو كفاءة، كي لا أقوم بهجوم أعدته؟

إسلام بى:

- سيدي ما هذا التفكير؟ فهذه القلعة تقف بفضلك، فهل ستنصرف عن مقصدها من أجل حركة بطولية.

صدقي بى:

- سيدي! انتبه لما تقول من كلام مهين، هنا يدرس ضباطنا في المدرسة الحربية، يترقوا مع اجتياز المعارك، لا يمتنعوا عن تقديم أرواحهم فداءً للوطن... آه! كنت مصابا! فلم ترى حجم شهامتنا؛ فكان العدو يشن في كل ليلة هجوماً مؤلفا من أربعين إلى خمسين ألف شخص، بينما نحن كان عددنا يتراوح من اثنان إلى ثلاث آلآف لا يكفوا حتى لحماية حصونهم، لكنهم خرجوا إلى ميدان القتال، فكان السيف يلوح بخمسة عشر من الحراب، كما كان بأظافرهم وأسنانهم حد السيف، أتبحث عمن يحمل الكومبارا[٢٩] بين ذراعيه ثم يقذفها في صدور الأعداء؟ أغير متوافر من يحمل السلاح بيده، من يبتر ذراعه فداءً للوطن؟ الله يعلم، إنك تود أن ترانا ونحن ي المعارك، وتحكم بأن ما في ملحمة "الشهنامة"[٣٠] من قصص واقعية، لكن اطمئن! فكل هؤلاء العساكر ، إذا كان لديه ألف روح لافتدى بها القلعة ولا أن

٢٩- الكومبارا: نوع من أنواع القنابل.

٣٠- الشهنامة: ملحمة إيرانية كتبها الشاعر الإيراني الفردوسي في القرن الحادي عشر.

يمتلك العدو حجراً منها.

إسلام بى (يمسح دموعه)، ويقول:

- إنني أبكي من سعادتي مثل الفتيات، أعلم! إن الجندي لن يُسلم القلعة، ولكن العدو سيأخذها بصعوبة؛ استشهد الباشا وأنت ستبيد نفسك، فمن إذاً سيقود الحرب؟ فالقوة التي تراها في قلب الجميع أتراها في فكره؟ فمن سيقوم بعملك طالما لا يقتدى بفكرك؟ فأنت ستقتل نفسك، وتشتت فكر كل من بالجيش؛ ثم تأتي وتقول أعملوا بهمة، حباً في الله لا تفعل! فتقعد ملوماً على وطنك.

صدقي بى:

- ماذا أفعل؟ كيف أستطيع أن أسلم رجلاً الحيلة الأخيرة، أيمكن هذا إذا ظهر أمر يستوجب المساعدة أثناء الهجوم؟ سيُدخل إلى الجيش بزي مختلف... من يعلم ماذا سيكون وما لن يكون.

زكية (تخرج من الزاوية التي تقطن بها)، وتقول:

- لو لابد من شخصين، فليكن أحدهما أنا.

صدقي بى:

- من هو؟ آه، طفلي المسكين! ابقي أنت مكانك.

إسلام بى (يخاطب زكية)، ويقول:

- ماذا تقول؟

زكية (تخاطب إسلام بى)، وتقول:

- يا عديم الرحمة، أتبخل علي بمكان في القبر؟ (تخاطب صدقي بى) اسمح لي، فأنت تبحث عن رجل كي يموت، فإن لم تكن قوتي كافية للقتال، فهي كافية للموت؛ فقد قلت لك من قبل أن موتي هين عنك؛ دعني أدخل إلى الجيش بزي آخر؛ فإنني روماني، أعرف بعضا من اللغات؛ فتغيير الزي أيسر لي عنك، ولا تخف؛ فلن أعرب عن شخصيتي سريعاً وإن لم تصدق فأسال إسلام بى.

إسلام بى يقول متلعثماً:

- تبدو كالطفل .

المشهد الخامس
السابقون، والشاويش عبد الله

الشاويش عبد الله:

- في الناحية المقابلة يجتمع العساكر مجدداً، أتوقع شن هجوم؛ فهم يدعونك إلى القلعة.

صدقي بى:

- عبد الله.

الشاويش عبد الله:

- أفندم.

صدقي بى:

- تعال إلى هنا، ألديك الرغبة في الموت في سبيل تلك القلعة؟

الشاويش عبد الله:

- أموت، أقامت الساعة؟

صدقي بى:

- الليلة سيذهب إسلام بى إلى مكان ما فهل بإمكانك مرافقته؟ مع العلم أنك ستتعرض لطلق ناري بنسبة تسعة وتسعين بالمائة.

الشاويش عبد الله:

- إنها الساعة إذا أُطلق نار علي .

صدقي بى:

- أحسنت عبد الله! هيا بنا إلى القلعة، ولننظر كيف سيمر موكبنا اليوم؟ وهناك نناقش أعمالنا.

زكية (تخاطب صدقي بى)، وتقول:

- سيدي، لماذا تُدني من عبدك لهذا القدر؟

صدقي بى:

- لا يا بني، ستذهب أنت أيضاً، ستكونون ثلاثة، فالعمل شاق... يعرف عبد الله لغة أيضاً.

(يخرج من هناك كل من؛ صدقي بى، وإسلام بى، وعبد الله)

المشهد السادس

زكية (تدخل الحجرة وتخاطب نفسها)، وتقول:

- في النهاية، يفتح التراب الأسود صدره، في النهاية، يكشف الموت عن نفسه، ماذا لو أراد الله أن يُنسج نقاب عرسي بدمي، ماذا لو لم يكن هناك أحزان ونجتمع سوياً دون استشهاد!... فإذا أمكن، فما أجمل الحياة... ما تلك الرؤى التي رأيتها بالأمس؟ أنا ومحبوبي سوياً، يرقد بين أحضاني، وكان حولنا قطع الماس تتناثر تحت ضياء القمر... كنت أشعر بدقات قلبي... كان يغطي وجهه بشعري... كنت أبكي حزنا... كان يبتسم... حيث إنه كلما سالت دمعة من عيني، تفتحت وردة على وجهه... كانت البلابل حولنا تغرد، والمياه تجرى؛ فكانت كمن يحسد حالنا... كان بين أحضاني؛ فكلما نظرت بوجهه تنخلع روحي من جسدي. كنا في وطني الحبيب، في حديقة تحت شجرة الصّنَار، آه! كان حلما... لكن ألا يتحقق؟ ليت عمري يمضي في ظل هذه الأحلام.

(يبدو من النافذة لهب المدافع، ترتعد زكية)،

وتقول:

- بسبب هذا اللهب، تهطل الثلوج بداخل الإنسان! وتشرق الشمس! ولتتلون السحب بألف لون، وبذلك ترتسم صورة جنان الجنة؛ فدخان المدافع لن يمحي بزوغ الصباح حتى وإن كان ذلك آخر يوم في عمري.

(تفكر بضع لحظات ثم تقول؛ ماذا إذا كان الموت بالنسبة لمن لا يبالي بروحه ليس أمراً مخيفاً؟! ليت الميت الحقير يعود إلى الحياة! ليته يظهر أمامي، فحينها لن أستحي من سحقه بقدمي.

المشهد السابع
زكية، إسلام بى

إسلام بى (يدخل إلى الحجرة)، ويقول:

- زكيتي.

زكية (تبتسم)، وتقول:

- أفندم!

إسلام بى:

- ماذا لو كنت رجلا غير محظوظ!؟ أتعرفي فيما أفكر كلما رايتك بجانبي؟ أظن أن ملكاً ترك السموات ونزل إلى هذه الأرض السمراء من أجلي.

أرى نفسي أحقر من إبليس؛ فهو يخدع الإنسان، بينما أنا أُخادع ملاكاً.

(يتنهد)، ويقول:

- طفل! لِما من أجلي أصبحت بهذه الحالة؟ لماذا تفعل كل هذا من أجلي؟!

زكية:

- آه! أتريد أن أرسل قلبي ممزقا إلى الآخرة؟ فما الذي فعلته من أجلك؟ أتعتقدني ملاكاً ؟ ليتني ملاكاً فأغادر السموات وأعقبك، فما الذي فعلته لك؟ كنت في الدنيا وحيدة بلا سند، كان لا يجول في خاطري سوى خيال والدي المفقود، ياله من خيال! في الظلام... في الفناء... كنت أرسم له في خيالي آلاف الأشكال، كنت أخزي الجميع؛ فقد كنت لا أستطيع محبة أحد؛ فطيلة عمري لم أكن أتخيل أن هناك رجلا تشعر تجاهه بالأبوة مثل قائدنا الأميرالاي؛ فقلبي لم يجد السعادة سوى في التفكير بوالدتي المرحومة وأخي المرحوم ، يالها من متعة! فعندما أفكر بأحد منهم، أجده يمر أمام عيني ويضمني في صدره، وحينها يمنحني الروح، لكني إذا فكرت بآخر، يخطر ببالي أنه يسحب الروح من جسدي ... كان قلبي جوالاً في القبور بين المفقودين

إلى أن رأيتك؛ رأيتك فتخيلت أنني بعالم آخر، وأدركت حينها ماهية الحياة، ومن هو الإنسان؛ فمن قبل لم أكن أعرف للحياة معنى، أما الآن صرت أحب الحياة أكثر من الجميع، الآن أعلم جيداً قيمة حياتي، الآن أرجح الموت في سبيلك عن الحياة. بلا مبالغة، أنت تحب الموت عني، لكني أحبك أكثر من روحي، بلا مجاملة، كنت ستتركني وتسرع إلى أحضان القبر، أليس كذلك؟ ألا تدرك أن روحي لن تبقَ في الدنيا بدونك؟ ألا يخطر ببالك أنك إذا فُقدت ستقيم زكيتك جنازة جوالة لا تهدأ أبداً (تبكي)الآن ستذهب إلى العسكرية و تتركني، ستذهب إلى الموت رغبة في إيداعي؛ بالتأكيد ما تبغاه هو الانفصال عني، ولا تفكر في شيء سوى الابتعاد عني.

إسلام بى:

- اصمتِي، حباً في الله اصمتِي؛ ستجعلينني أبكي وأصرخ مثل الأطفال اليتامى، ستجعلينني أُخفي أياً ما كان في قلبي؛ فإذا لم أبوح لك بما في قلبي؛ فإلى من سأبوح يا زكيتي؟ أنت لن تظني بي الدناءة، أليس كذلك؟ فعندما وعدت الأميرالاي، كنت أفكر في وطني أولاً، ثم أنت ومجيئك معي؛ فلو لم أكن قد فكرت في أننا سنكون سوياً، لما قطعت العهد بكل هذا الفرح والحماس... لذا وعدت، وسأموت، وسأُبدي مهمتي عليكِ؛ لأن الواجب هو خدمة الوطن... آه زكية! زكية! ليكن في معلومك أن قلبي لا يحاول الخلط بين حبك وحب الوطن؛ فالدمج بينهما يقتلني بلا شك، لكني سأموت مجدداً من أجل الوطن، فقد قلت: "الواجب خدمة الوطن."، بالطبع سأذهب، لكني سأذهب والحزن يرتسم على أساريري؛ فمن يراني هكذا ربما يقول: "إنه لا يحب وطنه."، ربما أنت محق، ربما انتبهتي، كم كنت سعيداً عندما قطعت العهد على نفسي، حتى أن السيد الأميرالاي ظل متحيراً؛ لأني كنت على يقين من أنك سترافقيني؛ فأنا لا أبغي الموت بدونك، ولا الحياة بدونك... أتعلمين، يقيني أننا لن نمت؛ فسلاح العدو سيفضل لحمنا عن عظامنا، لكنه لن يفصل أرواحنا عن أجسادنا؛ فالحيوانات

التي خرجت من البيضة، الدول التي انهارت، والدنا التي خُلقت، كل هذا سيتلاشى، لكننا سنبقى سوياً؛ فنحن من أجل الوطن نعدو وراء الموت في كل دقيقة، و لن نمت؛ يعني نُخلق من أجل إحياء الوطن وإعلائه.

زكية:

- سيدي، لا يساورك الشك؛ لو كنا سنمت؛ فقد مت من إصاباتك وأنا مت من الحزن لرؤياك مصاب. آه! أنت لا تعلم... أنت لا تعلم ما كان بك! أنت لا تعلم، ما مر بي! كشر الموت عن أنيابه، وكان يطوف حول مرقدك عدة أشهر، وحينها كنت قائمة على خدمتك ولم يكن بإمكانك التعرف علي! فَقَد الأطباء الأمل... فَقَد الجميع الأمل، لكني لم أفتقده؛ "فالقدر في منأى عن كل هذا الظلم، بالطبع في منأى". ألم تقل بضجر شديد مثل هذا الحديث؟ فهو لا يزال عالقاً بأذني، ربما لا تعلم أن بعضا مما تتلفظ به يظل عالقا بذهني وبقلبي، ولا ينفصل عن أذني لحظة واحدة، ولا سيما تلك الكلمة لم تغيب عن بالي؛ فكلما قال الأطباء: "ليس هناك أمل."، كنت أقول لنفسي باستمرار: "بالطبع سيتحسن سيدي... بالطبع سيخدم وطنه."... سيُظهر الله معجزة ولن يخيب أملي؛ فإن الله لا يبرز معجزاته سُدى، إن شاء الله سنأتي سالمين من هذه المهمة.

إسلام بي:

- من يعلم!

زكية:

- أليس الله قادراً على إظهار معجزة؟ أنسيت إيمانك بالعدالة الإلهية، وعظمة الوطن؟

إسلام بي:

- حاشا لله، لن أنسَ أبداً؛ فالوطن مقدس والله أكبر.

المشهد الثامن
السابقون، والشاويش عبد الله

الشاويش عبد الله (يدخل إلى الحجرة)، ويقول:

- هيا يا سيدي.

إسلام بى:

- إلى أين؟

الشاويش عبد الله:

- يجب أن نخرج الآن من القلعة حتى نتمكن من الهجوم على الجيش؛ فالطريق إلى هناك يستغرق ثلاث أو أربع ساعات، هيا أعد ملابسك.

إسلام بى:

- من أي طريق سنذهب؟

الشاويش عبد الله:

- إنني أعرف طريقاً.

إسلام بى:

-هل يمكن أن نرى الأميرالاي حتى لو مرة واحدة؟

الشاويش عبد الله:

- إنه قادم

إسلام بى:

- ليتنا ذهبنا!

الشاويش عبد الله:

- بلى، ليتعقبنا؛ فهل ستقوم الساعة؟

المشهد التاسع
السابقون،وصدقي بى

صدقي بى (يدخل إلى الحجرة)، ويقول:

- هل أنتم مستعدون يا أولاد؟

الشاويش عبد الله:

- سنذهب، لكن لا تقلق إن لم تصلك أخبار عنا لمدة بضع أيام.

صدقي بى:

- ماذا تعني بضع أيام؟

الشاويش عبد الله:

- بضع أيام تعني بضع أيام؛ فيجب أن نختبئ باحثين عن فرصة، محطمين آمال العدو ؛ ومن ثم نهجم على الجيش بهذه الطريقة الفجائية؛ لسنا ذاهبين من أجل الضيافة.

إسلام بى:

- إذا كان العمل كما تقول؛ فإنه بذلك أكثر أماناً

صدقي بى:

- إني أريد أن يتم العمل على وجه السرعة .

إسلام بى:

- أنت تعلم أنه لا فارق لدي بين الموت قبل اليوم أو بعده.

الشاويش عبد الله:

- يتأخر العمل يومين، لما أقامت الساعة؟

(نفير بوق الملاحم)

صدقي بى:

- هجوم آخر ألم يسأم الجنود من الموت!

الشاويش عبد الله:

- هيا يا سيدي، بدأ قصف المدفعية؛ فيجب أن نمضي بين القذائف؛ فليس هناك طريق آخر آمن عنه.

إسلام بى:

- هيا... فالموت في انتظارنا. يحيا الوطن!!!

(يخرج كلٌ من إسلام، وعبد الله)

صدقي بى: (ينظر إلى زكية بحذر)، ويقول:

- يرقد ابني تحت الثرى...

يُسدل الستار

الفصل الرابع
المشهد الأول
(مكان آخر للحصن)

صدقي بى (يخاطب نفسه)، ويقول:

- أرقت دم ثلاثة رجال على الأرض سدى، لا شك أنهم شهداء، فماذا إن ذهب العدو... ماذا إن كان ما فكرت فيه أصبح غير ضروري... فللآن أنا على يقين من أن قلبي حجر؛ سمعت بوفاة زوجتي، وعلمت بوفاة ولدي، وأخبروني بفقدان ابنتي؛ فلم يبقَ لي أحد بالدنيا سوى رستم بى، وها هو يستشهد بالأمس، سقط بين أحضاني، حتى إسلام الذي أعلم عنه أنه أشرف وأعظم وأجدر من كافة من بالقلعة،غميت عينيه وقدمته قرباناً وأيضاً عبد الله المسكين الذي تحمل ظلمي بكافة أنواعه طيلة عشر سنوات، ذهب معه ولم أحزن قط على أيٍ منهم؛ تحجر قلبي حقيقة؛ فلو ضربوا عليه بالسيف لربما يُنتزع، لكني لن أشعر. ذاك الطفل! ذاك الطفل! كلما مر أمام عيني كان بريق وجهه يُلاصق كبدي مثل النيران... (وبعد تفكير لبضع لحظات) دعك يا سيدي... فقلبي لم يعد قلب أنسان! حيث إنني فعلتها! فهل أُرسل المسكين الذي فسد لبن أمه في فمه إلى الموت؟ كان الطفل يشبه المرحومة[٣١] قليلًا؛ فكلما نظرت إلى وجهه يخطر ببالي ابني أحياناً وأحياناً ابنتي؛ فبسببها أتكبد كل هذا الحزن، أليس كذلك؟ الإنسان ضعيف، الإنسان بلا قوة... لا يستطيع الانتصار على ذاته بأي شكل من الأشكال... لا يستطيع التغلب على فطرته بأيٍ حال من الأحوال... كنت أعتقد نفسي مسيطرة على قلبي، وأسفاه!... هل رق قلبي المتحجر؟ لا زال، الدم ينزف بداخلي...

٣١- يتحدث عن زوجته.

المشهد الثاني
صدقي بى، وبعض الضباط
(يتوجهون إلى الداخل)

أحد الضباط:

- سيدي، بدأ العدو في هدم خيامهم، كما أقام ليلة كُبرى فوق نهر "تونا"، وبدؤوا يتقهقرون عن كافة الأطراف.

صدقي بى:

- إنني رأيت ذلك.

الضابط الأول:

- لو تأمر لخرجنا، وجعلناهم يتركوا بعضاً من المدافع والأعلام.

صدقي بى:

- ما الداعي من تعقب عدو أدار وجهه؟

الضابط الثاني:

- سبحان الله! فهل لن يتوجه عسكره إلى مكان آخر داخل "تونا"؟ فمن يقطن هناك هم أخوة لنا أيضاً؛ فما الذي يحدث إذا استأثرنا بعضاً منهم في هذا التراب؟

صدقي بى:

- إننا لا نود أن نجعله يدير وجهه.

المشهد الثالث
السابقون، وعبد الله

(يأتي الشاويش عبد الله مسرعا)

صدقي بى:

- عبد الله.

الشاويش عبد الله:

- أفندم.

الضابط الثاني:

- سيدي، أمرت؛ فليتهم بدؤوا القصف، ليتهم حيوا المسافرين؛ لذا نود الخروج لمشاطرة جنودنا لحظات الوداع، وإن لم يكن، فلا تقل أن أصدقاءنا العثمانيين لا يعرفون آداب المعاملة.

صدقي بى:

- حسناً، حسناً، فليكن كما تقول، اذهب! اعمل! وسأتعقبكم.

(يخرج الضابط)

الضابط الأول:

- ماذا يمكن أن يحدث إذا تقهقر؟ ما الذي فعله عندما آتى، وما الذي سيفعله عند ذهابه؛ فنحن لم نتخاذل عن مواجهته، فهل سنتخاذل عن تعقبه؟

أُمر، نود الخروج! أمر، فيأتونك حشوداً؛ حيث بدأت تحتشد الكتائب الأخرى، إذ يأتي العسكر من كل حدب وندب.

المشهد الرابع
صدقي بى، وعبد الله

صدقي بى:

- عبد الله!

الشاويش عبد الله

- تفضل.

صدقي بى:

- أين الطفل؟

الشاويش عبد الله:

- هل الطفل؟ أين سيكون؟ بجانب إسلام بى .

صدقي بى:

- وأين إسلام بى؟

الشاويش عبد الله:

- في الخارج.

صدقي بى:

- سالماً؟

الشاويش عبد الله:

- كان سالماً عندما تركته، كلاهما بخير، لكني لا أعلم الآن.

صدقي بى:

- تحدث؛ فإني منصت، ماذا فعلتم؟ ماذا حدث؟

الشاويش عبد الله:

- تتحدث عن إسلام بى أليس كذلك، فمن هو؟ إنه ليس رجلاً، بل غضب الله، أما الطفل فكان ظلاً له؛ فإذا ذهب إلى مكان لازمه؛ فهذا الأمر كاد يجعلهم يقتلون أنفسهم، ومن ثم كاد يقتلني. تبحث عن رجل لأداء المهمة! فإنني راضٍ عن أداء كليهما، وليرضى الله عنهم أيضاً، أسود... بواسل...

صدقي بى:

- ياه، ماذا فعلوا؟ احكي! ماذا فعلوا؟

الشاويش عبد الله:

- خرجنا من هنا، ثم مكثنا في قرية مدة ثلاث ليال، ولم نستطع الدنو من الجيش بأي شكل من الأشكال، وفي النهاية عثرنا على طريق يخفي عن الأنظار، فسلكناه زحفاً حتى وصلنا إلى قاع تل به مغارة، إني أعرفها منذ زمن الصيد، اختبئنا بها، وعند منتصف الليل بدأ العدو في هدم خيامهم؛ فحين رأى إسلام بى هذا - تماسك إن استطعت- قال: " بكل تأكيد سأخرج. "، يردد صدى الصوت: " بكل تأكيد سأخرج. "، أقول: " لن تفعل. ". يأبى، أقول: " لا يجب. " يأبى، قلت: " سيذهب العدو."، يأبى، فقلت: " ها... هيا بنا نخرج، أتقوم الساعة؟ فخرجنا إلى

أن اقتربنا كثيراً من الجبهة زاحفين متخفين، اقتربنا لكن ما الفائدة؟ فقد كانت الجبهة برمتها محاطة من قبل الشرطة داخل مخفرها؛ فكرنا، سعينا، لكننا لم نتمكن من الدخول إلى المكان المراد، فقلت: "هيا بنا نخرج من هنا آمنين."، فحينها قال إسلام:

"ألا تطلق ناراً تجاه الجبهة؟" فماذا إذا أنزلوا أمام الباب صندوقاً من البارود والرصاص؟!...

صدقي بى (يقطع حديثه)، ويقول:

- ماذا بعد؟

الشاويش عبد الله:

- ماذا سيحدث بعد؟ انطلقت ضوضاء؛ حيث صارت البندقية لزاماً في يد الجميع... بدأ الرصاص يهطل علينا بغزارة... كان إسلام بى يسعى لضم الرصاص إلى صدره مثله كمثل عاشق الموت، وكان ظله لا يفارقه. أتصدقني إن قلت لك أني رأيت الموت بعيني! الحمد لله، أصيب إسلام بى في ثلاث أجزاء بجسده، كان محظوظاً إذ أصيب في أطرافه الأمامية، فأغشي عليه وسقط على الأرض فأمسكته من كتفيه، والتفت يدا الطفل حول قدميه، دخلنا إلى دَغَل بجانب المغارة، ثم سحبناه سوياً... وفي ظل هذا الصخب لم يتمكنوا من إيجاد أثر لنا، وبالتدريج دخلنا إلى المغارة، وفي هذه الأثناء تلقيت رصاصتين؛ إحداهما أعلى كتفي الأيمن، وأما الأخرى في فخذي من الناحية الأمامية، ولا تزال به.

صدقي بى:

- كيف نجيتم من المغارة؟

الشاويش عبد الله:

- ليلاً مر عسكر العدو قاطني ذلك الجانب على "تونا"، وعند الشروق أخرجت رأسي من المغارة، ناظراً لما حولي فلم أجد أحداً قط، نهضنا مع الرفقاء وسرنا في طريق ناءٍ، حتى اقتربنا من القلعة ونحن متخفين بين الأدغال، وبمجرد أن بزغ الصباح رأينا العسكر يخرجون من حصن

العرب، وبمجرد أن رأى إسلام بى هذا؛ هب كالصاعقة وصاح قائلاً: " لتكن لحظتي مع الله؛ فلن أدخل القلعة إ لا إذا أشعلتُ صندوقاً من الذخيرة." وبعد أن قال هذا سقط أمام العسكر... وبالفعل دعينا ظله... لم أكن أرغب في إيداعهم ، ألقى إسلام بى نفسه في فوهة من جهنم ... فأصبنا العدو، فقد كان بيده سيف و طبنجة... قال: "يا الله!"، ثم فر نحو عربة الذخيرة، فظل معه الرصاص دون عربة أو حِصَان أو حتى عسكري يقف بجانبه... تناثرت أشلاء الجميع، والله يا سيدي، كانت المسافة بينه وبين العربة كالمسافة بيني وبينك أو أقل.

صدقي بى:

- شاب فتى!

الشاويش عبد الله:

- الحمد لله، حماه الله وحمانا. قلت: "كفي يا سيدي، هيا بنا نذهب؛ فالسيد الأميرالاي في انتظارنا."، كان بارود الحرب ونيرانها... إذا استطعت أن تميز فميز بينهما، لكني نظرت؛ فلم يتحقق ذلك... حتى أن هذا الأمر قد لفت أنظار العدو، ثم جئت لسيادتكم كي أخبرك قائلاً: أتقوم الساعة إذا نقص رجل؟.

صدقي بى:

- حسناً، ليرضى الله عنكم جميعاً، وليحل لكم خير الوطن...

الشاويش عبد الله (ينظر خارج الحصن)، ويقول:

- انظر، انظر يا سيدي ها هم يفرون! ولم يمر نصف ساعة، فلمَ العجلة؟

صدقي بى:

- أأنت غاضب لذهاب العدو؟

الشاويش عبد الله:

- اسمع يا سيدي، إنني لا أحب جبن العدو بهذه الدرجة، أتقوم الساعة إذا صمدوا ساعة أمام النيران؟ سيدي، ها هو إسلام بى قادم،

الله الله! كُسر سيفه في يده مجدداً، إنه قادم إلى القلعة كمن يقدم للدخول في القبو (ينادي على إسلام بى) تعال إلى هنا! ينتظرك الميرالاي بى، أتقوم الساعة إذا دخلت إلى القلعة؟.

صدقي بى:

- أليس الطفل بجانبه؟

الشاويش عبد الله:

- الطفل، أينفصل عنه للأبد؟ لا سيما تمكن من الدخول! مبارك، ليته تأنى قليلاً أثناء دخوله في فوهة النار، ماذا كان سيحدث؟ أتقوم الساعة؟

صدقي بى:

- الحمد لله ألف مرة... فقد كنت سبباً في موت هؤلاء سيدي، وبالطبع كنت سأُجن أو أضطر لقتل نفسي، لكن أدركتني العناية الآلهية.

(في تلك الأثناء دخل إسلام بى)

المشهد الخامس
السابقون، وإسلام بى

صدقي بى:

- تعال يا ولدي! تعال يا سيدي! تعال يا أسدي! بيض الله وجهك في الدنيا والآخرة؛ فلقد قدمت أعظم درس وعبرة لكل من يحب وطنه، بل أصبحت أروع نموذج يقتدى به كل من يريد الموت في سبيل وطنه؛ فلو تجسد عشق الوطن في لحم ودم لأصبحت أنت بالتأكيد. سمعت بطولاتك من عبد الله، ليس السماع ضروريا! فمن يراك مرة ويسمع حديثك سيعي من أنت. سيدي، غفر الله لك من أجلنا، ومن أجل الوطن؛ فماذا إن ذهب تصميمي سدى، ماذا إن ذهب العدو، لكن

من يعلم؟ فإني لم أستغل جاسوسا من أجل رفعة الوطن؛ فكان من الممكن البحث عن أشياء كهذه، فسامح فيما بذلته من جهود؛ فأملي أن لا تسأم مني.

إسلام بى:

- سيدي، ماذا تقول؟ فإني في حياتي لم أرَ معروفاً أعظم من تكليفك لي للقيام بمثل هذه المهمة؛ فأنت ضمنت لي أعظم نفع لوطني، وانتظرت مني تحرير هذه القلعة؛ فوضعت بين يدي أعظم حيلة فكرتم بها، تُنجي ألف أسد من الأسر، تلك الأسود الصامدة أمام العدو على عاتقيها السلاح؛ كنت أرقد مصاباً منذ ثلاثة أشهر، ولم أقدم خدمة قط لهذه القلعة، ورغم ذلك، ومن أجل الحمية ومحبة الوطن وعشقه، فضلتني على عشرة آلاف من الأبطال، فضلتني على نفسك، ليتك فكرت لمرة واحدة! فعندما ذهبت من هنا شعرت بالعظمة مثل الدولة؛ لأن أعظم نفع للدولة سيتحقق بساعدي، شعرت أيضاً بأني مقدس كالوطن؛ لأن خيانتي هي خيانة للوطن نفسه، كنت في دهشة اثني عشر ألف عثماني؛ لأني كنت مضطرا لأداء خدمة يقوم بها اثنا عشر ألف عثماني بمفردي؛ فإيداع العالم في دهشة، جعل الملايين من قانطيه كاليتامى الذين فارقوا والدتهم، والاستشهاد مثل اثني عشر ألف من ذوي المروءة، وتسجيله في التاريخ بأنه جيش قائم بذاته، ما أعظمه شرف للإنسان، ليتك استحضرت كل هذا أمام عينيك ولو لمرة! أنت تعرف أكثر مني ماهية الحمية وماهية العظمة! كنت أود تحرير وطني، فأين الوطن، فإن كنت قد حققت الاستقلال لتلك القلعة، فكم كنت سأشعر بالعظمة داخلي. حياة واحدة... حياة أربعين أو خمسين عاماً... فالحياة التي نعرفها ليست أربعين أو خمسين عاماً، بل حياة أبدية؛ فالحياة التي نعرفها أتقدر عظمتها بالدقيقة والثانية؟ إنني لم أمت، بل حققت استقلال هذه القلعة ومن ثم وطني أيضاً، وليس هناك ضرار؛ فكنت على يقين من أنني سأموت من أجل وطني، من

أجل بعض من جدرانه الحجرية. سيدي! ألم تقل لي آنفاً ولدي؟ لكني سأقل لك والدي؛ فإني لا أجد شيئا أعظم وأشرف من كلمة والد؛ لذا أود مناداتك بها؛ بفضل والدي وجدتُ في هذه الدنيا، لكن بفضلك تعلمت كيف أكون رجلاً؛ أعطني يا سيدي، يا والدي يديك أقبلها.

صدقي بى (عانق إسلام بى وقبل جبهته، ثم قبل إسلام بى يد الميرالاي بصعوبة، وبعد برهة من التلعثم) يقول:

- ولدي، أسدي! كان يلازمك طفل، لا أستطيع رؤيته.

إسلام بى (يقول بحيرة متصنع):

- طفل؟ أي طفل؟ فهمت... (وبعد قليل من التفكير والنظر فيما حوله، اقترب من الميرالاي) ، وقال:

دعتني ولدي أليس كذلك؟ اعتبرتني ابناً لك أليس كذلك؟ لذا في قلبي سر أود إخبارك إياه إن لم تسأم، لكن لا تسألني أمام الخلق؛ فبإمكاني إخبارك أنت فحسب.

صدقي بى:

- من هنا يا ترى؟ آه، عبد الله! أذهب وباشر عملك.

الشويش عبد الله (أثناء خروجه) يقول:

- أي عمل أذهب من أجله هل الساعة ستقوم إذا بقيت هنا.(يخرج عبد الله)

المشهد السادس

صدقي بى، وإسلام بى

صدقي بى:

- كنت ستقول شيء ما؟

إسلام بى:

- لن يستطيع الطفل المجيء إلى هنا.

صدقي بى:
- لماذا؟

إسلام بى: ـ
- لأنه بلا محرم

صدقي بى:
- ما معنى بلا محرم؟

إسلام بى: ـ
- بلا محرم، ما معناها؟ أتريد أن تجعلني أن ألفُظها ثانية؟ سيدي، إنه فتاة من مدينة "منستر"! عشقنا بعضنا من أول نظرة، وانفصلنا في النظرة الثانية... فإني أتيت إلى هنا من أجل الوطن... هي أتت إلى هنا من أجلي، والله إني لم أحضرها، ولم يكن لدي علم بمجيئها، لا تُخَطّئني! فلقد أدركت ذنبي، وتدعني تحت سطو الآلم، إني أعلم أنك أشرف من بالدنيا؛ فلن تكن نظرتك لي هي أنني عديم الشرف فهي أعظم من كوني مذنبا.

صدقي بى:
- الآن من ذا الذي يقول لك أنك مذنب؟ أتقول أن الطفل الذي لازمك فتاة؟ من مدينة "منستر" أليس كذلك؟ اذهب الآن، اذهب! آه! أتعرف ما الذي يجول في ذهني الآن؟ اذهب واحضر الطفل؛ فإذا كان ما يجول بخاطري صحيحاً، فحينها تكون قد أحييتني مجدداً، أنت في مقام ولدي. أقول اذهب؛ فإن لي فتاة في مدينة "منستر"، وفُقدت، أتفهم؟ اذهب وأحضرها... فإذا وجدتها ربما أكون والدك حقاً...

إسلام بى (يقول بحيرة شديدة)
- الطفل! هل تريده؟ هو ليس بعيداً... هناك... في ذلك المنزل... هل أنادي عليه؟

صدقي بى:
- ألا تزال واقفاً!

إسلام بى:
- زكية! زكية!

صدقي بى:
- يقول اسم ابنتي! آه! فهل يكون للإنسان تاريخ في هذا العالم لم يكن بالحسبان؟

إسلام بى:
- زكية! إنني أنادي عليكِ ألا تسمعين؟

المشهد السابع
صدقي بى، وإسلام بى، وزكية

زكية (تخاطب إسلام بى) , وتقول:
- يدعونني آدم (تشير إلى الميرالاي(ليتك ترى! أتريد أن تكشفنا؟

صدقي بى (يعدو نحو زكية ويقول بأسلوب متسلط):
- ما اسم والدك؟

زكية:

- إنني أريد أن أعرف؛ فإنني لم أره قط.

صدقي بى (يخاطب نفسه), ويقول:
- الطفل المسكين!
(يخاطب زكية ويقول):
- ما اسم والدتك؟

زكية:
- كنتَ طفلاً عندما توفيت والدتي، وكان الجميع في المنزل يدعونها الهانم؛ لذا لم أسمع اسمها قط...

صدقي بى:
- السيدة المسكينة؟

زكية:
- أهناك أمر آخر؟

صدقي بى (يتمالك نفسه)، ويقول:
- أكان لك أخٌ؟

زكية:
- نعم، كان لي .

صدقي بى:
- ما اسمه؟

زكية (تحدق بوجهه الميرالاي)، وتقول:

- إنك تسأل عن أمور غريبة جداً.

صدقي بى:
- صادق أليس كذلك؟
زكية (تخاطب إسلام بى)، وتقول:
- آه! وجدت والدي، وجدته، ها هو والدي... ها هو والدي الذي كنت أشتاق إليه منذ أن أتيت إلى هذه الدنيا...إنك الآن لن تصدق... إنك لم تكن مصدقاً أنني سأموت من أجلك... انظر! انظر إلى عينيه لمرة واحدة! فهو ينظر إلى وجهي مثل والدتي حينما كانت تُكِن حزنها علي في قلبها، انظر! انتبه إلى طريقة سيره؛ فهو يجول مثل أخي عندما يكون مضطرباً، الآن يبكي من أجلي أليس كذلك؟ فعندما أبكي من أجل أحد، تعلم إنني أُخفي وجهي بيدي مثله تماماً، والله إنه والدي، بالله إنه والدي؛ فقلبي لن يخدعني أبداً في أمور كهذه.

إسلام بى:
- زكيتي! لماذا أنت مضطربة هكذا؟ فمن ينظر إلى حالك، يعتقد أن الوطن في خطر... أنتِ تقولين أن السيد والدك... تقسمين... أليس كذلك؟ أنا أيضاً أقسم أنه والدك ... إنه يعتبرني أيضاً ولده... حتى لو لم يكن والدك، فسيكن والدك... أنت ملكي أليس كذلك؟

زكية:
- إنني ملكك... أنا ملكك... أأمر ماذا تريد؟! لا تغضب! لا تحقد! إنك لن تحقد على والدي، أليس كذلك؟

إسلام بى:
- من ذا الذي يود إيداع والدنا؟

صدقي بى:
- تعال إلى هنا! توفيت والدتك على فراش المرض أليس كذلك؟ ماذا قال أخاكِ وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ؟ أكان يذكرني، أكان ينظر لما حوله باحثاً عني؟

زكية:
- والدي العزيز، هذا أيضا يؤلمني؛ فلا تحضر أمام عيني فُرُش الراحة، المقابر! حيث إنك بذلك تشعل بي النيران؛ فالآن أعتقد أنني خرجت من القبو وهربت من جانبه.

صدقي بى:
- إلهي العادل! إلهي الرحيم! في النهاية لم تدع عبدك وحيدا في الدنيا! في النهاية لم تدع هذا المسكين قانط من كل شيء، الحمد لله كثيراً على غفرانك، ما الذي فعلته استحق عليه نعمتك هذه؟ فإني دائماً ما أخاطب ذاتي بأشياء غير لائقة! فهل كرمك يا الله يتطلب سبباً؟

إسلام بى:
- أجل يا سيدي! فيقيني أن عفو الله له سبب، وأنه يأتي لمن يستحق... تقول ما الذي فعلته؟ أي لا أعلم ما الذي فعلته، لكن ما أعلمه جيدا هو أنك جعلت من ذاتك إنسان حقيقي، سيدي، نحن جميعاً في ذلك الحصن كنا كالأعضاء، الآلات، بينما أنت فكنت الروح؛ إنك لم ترهب الموت؛ فهل هناك روح ترهب الموت؟ لم يرهب الموت أحداً لرؤياك غير خائف؛ فقد كنت قدوة للجميع، إنني لا أقول هذا بغرض المدح أو المجاملة؛ فليتك ترى الحمية في عيون أحد آخر سواي أنا، أو ابنتك، أو عبد الله، فقليلاً من تلك الحمية يعود فضلها إليك. ها هو الله لا يدع البشر الذين يحتلون مكانة في القلب خائفين في الدنيا، وفي الآخرة أيضاً...

صدقي بى:
- بني, إن خيالك يشرد بعيداً؛ فإنني عبد ضعيف لا حول له ولا قوة، لم أقم بشيء سوى أداء مهمتي.
إسلام بى:
- هل أن يؤدي الجميع مهمته أمر سهل ؟ فلو لم يراك الجميع أمام عينيه، فيا ترى كم من شخص سيسعى لتنفيذ مهمته؟

صدقي بى:
- ألا تعلم شعبنا؟ ففي دمه تجري تلك الحمية؛ فالجميع ولد من رحم أمه يعي ماهية حب الوطن.

إسلام بى:
- إنني أتفق معك فيما تقول، لكن أيمكنك أن تفكر أن هذا الشعب في حاجة إلى نموذج يُحتذى به، إلى رجل عظيم يكن منارة له؟

صدقي بى:
- محتاج، لكنه محتاج؛ لأنه يظن نفسه محتاجاً.
(وفجاءة يتغير أسلوبه) شيء عجيب! فالكل يعيش في لذة وصفاء... هنا نتحاور بتأن في كافة الموضوعات، ليس العيب عندكم، فإنكم بلا أولاد؛ لذا لا تعرفون ما هو الابن ، حتى أنا! كانا لدي قرتا عين، لم أرهما منذ خمسة عشر عاماً، معتقداً أنهما قد قُضي عليهما تماماً. الآن يقف أحداهما أمام عيني، يجول أمامي منحة من الله عز وجل .آه! أنتم لا تعلمون ما حال قلبي... كنت أظنه حجراً، لا يجري به دم، الآن أشعر أن ذلك الحجر بدأ يتلألأ كالماس، ومن دمائه بدأت تتفتح الورود على هيئة مجموعات؛ فمر خمسة عشر عاماً من عمري أمام عيني ،أتعلمون بما أشبه مرورهم؟ أشبهه بأني دخلت قبراً ورقدت فيه

خمسة عشر عاماً، وها أنا أستيقظ الآن وأرى الدنيا.

(يخاطب زكية) , ويقول:
- ابنتي! ها أنا أُبعث، وتعود إلى الحيوية مجدداً، انظري! انظري إلى وجه والدك الذي آلمك شوقاً لرؤياه منذ زمن طويل! لا تظني أنه خرج من قبره تواً، ألا تحبين والدك؟ إنني لن أقل لك حبيه، لكن لو أنك تحبينه قليلا لن تُسيئي إليه؛ فنظرتك لهذا المسكين وحديثك معه، أنساكِ عمر خمسة عشر عاماً وعادات خمسة عشر عام.

إسلام بى:
- لو قالت زكية أنها لن تحبك، لآمنتُ بأنها لم تحب.

زكية:
- الإيمان بالحب هي عادة قديمة لديه؛ فهو يحب نفسه ولا يؤمن بأن أحداً آخراَ يحبه والدي، من أجله ضحيت بحياتي، ولم يكن بيدي نقض عهد قطعته، من أجلك... لو... لو لم أفكر به، لمنحتك روحي باختياري.

صدقي بى:
- ابنتي! إنني لم أختر لك قدرك؛ فلا تخرجيني من قلبك.

إسلام بى:
- أي ابن لن يحب أباه مثلك؟

صدقي بى:
- أنت تحبني أليس كذلك؟

إسلام بى:
- ألا تعلم كم أحببتك؟ لن أستطيع أن أقول أنى أحبك مثل وطني، فيكون رياءً، ولو قلت مثل زكية، فلن تصدقها... مثل روحي... لا؛ لأن الروح تبدو لي بلا قيمة... وجدتها يا سيدي! مثل والدي... في الحقيقة أحبك مثل والدي.

صدقي بى:
- لو أجبت مباشرة على ما سأسأله, لآمنت حينها أنك تحبني.

إسلام بى و زكية) في نفس الوقت (يقولان:
- تفضل! اسأل يا والدي.

صدقي بى (يقف بينهما) وبابتسامة يقول:
- حفل زفافنا، أقصد حفل زفافكم متى ؟

(تنظر زكية إليه بخجل).
إسلام بى: (يقول متلعثماً) حفل الزفاف ؟ لا يستطع عبدكم تحديده ... أنتم ... كيف حفل الزفاف؟ تحت أمركم.

صدقي بى:
- لو بإرادتي، فعلى أقصى تقدير سننتظر حتى هذا المساء (ينظر في ساعته) أوو... باقي أربع ساعات ونصف! أربع ساعات ونصف! إنه عمر إنسان ! يا له من توقيت! ليحسن الله للصابرين.

زكية:
- والدي أتمزح مع ابنتك؟

(يبدأ إنشاد السلام الوطني،ويُسمع صوت المتطوعين)

صدقي بى:
- اسمع! إنني لستُ الوحيد الذي يمزح؛ فالجميع يمزح ويتسلى بأسلوب آخر؛ فهم سعداء مثلنا، أقسم أن هذه السعادة نابعة من تحرير القلعة وليست من تحرير أنفسهم
(يخاطب إسلام بى) , ويقول:
- ما قولك؟ قد تجاوزنا كل هذا الحصار والضجر؛ فلم يشكو أحد من شيء سوى سوء الأخلاق التي نعرفها.

إسلام بى:
- في الحقيقة, تكمن حماسة بداخل هذا الشعب !

صدقي بى:
- لا شك، أسمع الدعاء! فهذا الجو يلامس داخلي؛ فموسيقاه وكلماته لابد وأن تخرج من قلوب اشتعلت بها الحمية الوطنية.

(يأتي العساكر والمتطوعون والشويش عبد الله، و تبدأ الكتيبة في المرور), وهي تقول:

ها هو السلاح في وجهه العدو
سيروا أيها الشجعان لمساندة الوطن
سيروا، تقدموا فنحن النجاة
سيروا أيها الشجعان لمساندة الوطن
أمهاتنا الوطن
من خيره يُطعمنا
نكون سالمين، فنقبع على صدور العدو

سيروا أيها الشجعان لمساندة الوطن
سمعة الوطن، حماية البلاد والعباد
ستبقى بفضل حرابكم
شعبه، هل لا يريد تحقيق مراده
سيروا أيها الشجعان لمساندة الوطن
هُداتنا يكدحوا بكل بسالة
كل حجر يقدر بألف روح
الانحناء ليس من أجل الوطن، بل لكسب سمعة اليوم
سيروا أيها الشجعان لمساندة الوطن
الإصابة وسام على صدر الجنود
ليت الموت آخر رتبة للجندي
المكانة أعلاها وأقلها واحدة
سيروا أيها الشجعان لمساندة الوطن.

صدقي بي:
- أسودي، إلى أين ذاهبون ؟ فر العدو ولم يعد لديكم أمر يستدعي العجلة، توقفوا واسمعوا قائدكم، ألا يجوز أن تأكلوا الطعام بعد خمس دقائق؟

الشويش عبد الله:
- تحت أمرك، لكن أتقوم الساعة إذا أكلنا بعد خمس ساعات؟

صدقي بي:
- ترون أن هذه القلعة اسمي من أرواحكم؛ فالواحد منكم يتصدى لاثني عشر شخصاً؛ فمنذ تسعين يوماً لم تتقهقروا بل عانيتم كافة أنواع البلاء، رفعتم شرف العثمانيين إلى السماء، بل أظهرتم أنكم من ظهور آباءكم، إن أردتم الذهاب إلى مكان ما بعد ذلك فاذهبوا، لا

تخافوا، فإذا ذهبتم إلى أي مكان، وإذا قلتم أني أحد حراس قلعة "سليسترا " سترون احتراما منقطع النظير، فإن بقي العدو في أرضه، لأقسم الشهم بسيوفكم، ولأقسم الإنسان بشرفكم؛ يحب الله من يحب وطنه. الوطن راض عنكم؛ فلو تعلم تلك الحجارة والتراب محبة الوطن التي تُبدونها، لارتعدت رضا وسعادة كلما لامست أجسادكم، مثلهم مثل أمهات عثرن على أبنائهن، كما ترضى عنكم الإنسانية؛ فقد خُلدت أسماءكم في قرننا هذا على صفحات التاريخ، كما أن الله راض عنكم؛ فلا شك أن الخدمات التي قدمتموها يذكرها الملائكة بكل رحمة واحترام، إنني أعلم قيمة التضحية التي قدمتموها، لكن أتعرفون قيمتها؟ فأنتم حررتم أعظم وأقدس مقصد للوطن، لكن لا يمكنني القول بأنكم حررتم الوطن برمته؛ لأن سلامته في كفالة العالم أجمع، ليتكم تعوا، أنه قد قدم علينا ثلاث دول ونشب الصراع معنا مجدداً.

الشويش عبد الله:
- أتقوم الساعة لو لم يأتوا؟

صدقي بى:
- لن تقوم الساعة، لكن الضجر سيخيم علينا.

إسلام بى:
- إنني راض بهذا الضجر، تمكنا من الحفاظ على هذا التراب بلا مساعدة ، متنا، وقضي علينا، ولن نُهزم مجدداً.

صدقي بى:
-_ بلى، لكن لمَ نشكو من المساعدة؟ فالإنسانية والمدنية ترانا على حق فلمَ لا نرحب بمن يسعى لتقديم عوناً لنا؟ فالذي يقترب منا هو حب الوطن، ليس الغرور!

صدقي بى: (يخاطب الجميع) قائلاً:
- أيها الإخوة ! عرضنا أرواحنا للخطر، حافظنا على مصالح الوطن ولا زلنا نحافظ؛ فنحن دائماً نحميها؛ ألسنا عثمانيين؟ فشرف العثماني يعني الموت فداءً للوطن؛ فنحن دائماً مستعدون للموت في سبيله, يحيا الوطن! وليحيا العثمانيون.

إسلام بى:
- أريد أن أسمع، أليس لديكم صوت؟ يحيا الوطن وليحيا العثمانيون!
(الجميع في نفس واحد) :
- يحيا الوطن! وليحيا العثمانيون .

(يسدل الستار)